



Princeton University Library



32101 074493097



أمانة قطب



في المروءة

دار الفكر بدمشق



Figure 1

Figure 2

Qutb, Amīnab  
...

أمين قطب

Fi al-ṭarīq

في الطريق

دار الفكر بدمشق

میرزا



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## لهوكد

- . الى التي سارت معي في الطريق الطويل المملوء بالعقبات والاشواك .
- . الى التي لم تعرف لها أملا غير آمالي ولا أمنية غير أماني .
- . الى التي نبض قلبها الخفاق بكل مشاعري ورؤاي وأحاسيسي .
- . الى التي جعلت من نفسها واحة ألتجىء اليها كلما أعياني الجهد ،  
وأضناني المسير .
- . الى التي أحس فيها رحمة الله وفضله ، عندما عين على عباده  
بالعطاء الوفير .
- . الى الشقيقة الحبيبة ... الى « حميدة » .

## المص

كانوا زملاء عمل ، وكانت أفكارهم وأذواقهم تلتقي وتتقارب في كثير من الامور على الرغم من أنه لم تمض على زمايلهم غير سنة أو أكثر قليلا .. شيء واحد كان سامي يختلف عنهم فيه : هو حبه للقراءة والاطلاع ، وتتبع الافكار والنظريات الجديدة . أما زملاؤه الثلاثة فقد كانوا يفضلون قضاء أوقات فراغهم كلها في المقاهي وفي أماكن اللهو ، وفي القيام بالرحلات المشتركة التي كانت تنظمها لهم - مع غيرهم من الموظفين - شركتهم الكبيرة . أو التي كانوا ينظمونها هم مع بعضهم البعض . وكانت هذه الرحلات - على كل مايجري فيها - أفضل بكثير من أماكن اللهو العامة التي تعج بالمنظر الفاضحة ، واللهو المستهتر ، والصخب الذي لاتحده قيود . وكان زملاؤه الثلاثة يصطحبون عائلاتهم معهم في معظم تلك الرحلات مع غيرها من العائلات . أما هو فلم تكن له زوجة ولا أبناء رغم أنه قد تخطى الثلاثين . ولم تكن والدته المحافظة ولا أخواته يقبلن الذهاب ضمن هذه الرحلات التي كانت والدته تسميها بـ « السلاطة القذرة » ، لا فيها من تبرج واختلاط وهرج ومرج وانفلات . ولهذا كان يذهب بمفرده ويصخب ويعربد هو وزملاؤه في الرحلة الصاخبة التي يتخلى فيها الجميع من كل قيد ، وكأنهم في سباق لانتهاك

أكبر قسط من اللذة والانطلاق .. أما بقية العطلات وأوقات الفراغ فكان يقضي بعضها في القراءة ، وبعضها في صحبة زملائه الذين يتقبلون بين أما كن اللهو ، تساعد على ذلك مرتباتهم الكبيرة وميراثهم الذي يزيد من دخلهم الكبير .. ولقد كانت حالته هذه تحزن أمه وتعذبها ولكنه كان يرى أن أمه تدخل أنفها فيما لا شأن لها به ، فهذه حياته الخاصة لا تدخل لأحد فيها ، والتي يجب أن يختارها ويكيفها حسب ما يرى وحسب ما يرتاح ..

كانت هذه فلسفته التي يطبقها ويسير عليها الى ما قبل ثلاثة أشهر فقط . أما الآن فما هو ذا اليوم يختار لزملائه مكانا هادئا - لم يذهبوا اليه من قبل - ليقضوا فيه زهرة المساء ، محاولاً جذبهم بعيداً عن زهاتهم المختارة شيئاً فشيئاً . مكان جاء هو اليه ثلاث مرات دون أن يخبرهم به . إنه الكازينو الهادئ المنعزل المقام في قطعة من صحراء ( حلوان ) بالقرب من عين المياه المعدنية التي تفجرت في الصحراء منذ سنوات ليست بعيدة ، فأطلقت الحياة فيما حولها بعد أن كان قفراً مجدباً .

كانت نسمات الأصيل الناعمة تهب خفيفة طليقة كطلاقة الصحراء التي تحيط بالمكان النضر الخضوضر . وكانت الشمس ما تزال تغطي بعض جدران الكازينو وبعض شجيرات الظل والسر و المتناثرة هنا وهناك في جوانب الكازينو وخارجه ، وبين ممراته التي تحيط بجوانبها الحشائش والزهور . تلك الزهور التي تتأبل في رشاقة مستجيبة لنسمات الريح الحانية الحاملة العطرة .

وكانوا قد فرغوا من تناول الشاي وبعض الفطائر ، وجلس كل  
منهم جلسة مريحة مستنداً الى حافتي مقعده ، مرتكزاً بأقدميه على الوصلات  
الخشبية التي تصل بين قوائم المنضدة . وقد أخذ بعضهم يحيل بصره بين  
الموائد القريبة والبعيدة مفتشاً عن الوجوه الجميلة ، في تلخص قد اعتادته  
نظراتهم لكثرة تكراره . . أما هو فكان يتطلع الى الافق تارة والى  
الزهور أخرى ، ثم الى الاشجار والصحراء التي كان يبدو جانب منها  
من فتحة باب الكازينو الكبير . وحين كانت عيناه تقعان على احدى  
الجالسات وكن قليلات متفرقات كان يشرع بتحويل نظره واهتمامه الى  
شيء أو حديث حتى لا يفلت منه زمام نفسه ، فيعود الى سابق عهده .

وفجأة عاد أحد زملائه يسأله في سخرية ذلك السؤال الذي سأله  
له مرات من قبل واعاده عليه اليوم ، وهم يقطعون الطريق الى الكازينو  
القابع وسط الصحراء . . « وبعد ياسامي ؟ إننا نريد أن نعرف سر هذا  
الانقلاب الذي طرأ عليك حتى ننتفع ببركاتك وصلاحك ؛ قل لنا سر  
هذا التغير الذي جعلك تأتي بنا الى هذا المكان القابض الذي يذكرنا  
بالقبور ، والذي لم ز فيه وجهاً ولا قواماً يستحق الهوى ، مدعيماً أنه من  
أجمل الأماكن التي يجب أن نرتادها . قل لنا ماذا حدث لك يا صديقي  
وأفسدك علينا ؟ . ولم يكدر زميله ينتهي من كلماته حتى شاركه الاثنان  
الأخران في التهمك والاسئلة ، مصرين على معرفة سر تغيره الذي جعله  
يوشك أن يقاطع كل سهراتهم ولهومهم وزهاهم التي كان هو أول محبذ  
لها متحمس لقضائها . ولم يستطع الافلات منهم هذه المرة فابتسم ابتسامه

فيها الكثير من الاضطراب . ثم اعتدل في جلسته واقترب من المائدة وارتكز عليها بأحد راسغيه ثم أخذ يقول وقد اضطربت أنفاسه قليلاً وجف حلقه كمن يلقي بشهادة هامة :

— لقد كنت في الحقيقة أريد أن أحدثكم عن سر هذا الانقلاب ، كما تسمونه ، منذ شهرين . ولكي آثرت السكوت حتى أتأ كدمن أني سأمضي في خطتي الجديدة ، وأنني لن أرتد ثانية إلى ما كنت فيه .. إنها مسألة صعبة أن يتحول انسان من حياة صاحبة فيها من المتع والمغريات كل ذلك القدر . إلى حياة تبدو في أول الامر ضيقة المنافذ ثقيلة القيود ولكن من العجب أن النفس حين تهتدي إلى النور لا تلبث أن ترى في تلك القيود انطلافاً وحرية ، ولا تلبث أن ترى في تلك المتع هبوطاً تجد لذة كبيرة في الاستعلاء عليه ..

وقاطعته أصوات زملائه الثلاثة ساخرة متهمكة ضاحكة معلقة بشتى العبارات . ولكنه ازداد تماسكاً وتلاشى اضطرابه الذي اعتراه في بدء الحديث ، ثم عاد يقول :

— لقد كنت أعرف أنكم ستقابلون تغيري بهذه السخریات . ولهذا سكت حتى يتضح لي الطريق تماماً . وأحس في نفسي القدرة على المضي فيه . أما سبب هذا التغير فهو حادث بسيط ، أقصد أنه حادث عادي يحدث كل يوم آلاف المرات في أنحاء الارض ، وقد شاهده من قبل حين وقع لأبي ، وسمعت عنه مرار عديدة في المحيط الخاص والعام .

ولكنه في هذه المرة كان شيئاً آخر في شعوري ، وقد رج كياني كله  
وفتح أمام عيني آفاقاً كانت مغلقة تماماً .. انه الموت ..

وبدت في نظرات زملائه معاني التعجب وعدم المبالاة . ولكنهم  
ظلوا منصفين منتهين لبقية الحديث . وتهدهو ومسح على جبهته واستمر  
في حديثه :

- عندما توفي والدي منذ عشر سنوات لم تكن نفسي ولا طاقتي قد  
تفتحت بعد للتفكير ، والشعور بهذا الحدث المائل على حقيقته .  
ولهذا ما لبثت أن انطلقت للحياة بعد أيام الحزن ، غير عابئة بشيء ،  
وساعدني على ذلك أن عائلتي لم تكن في حاجة إلي . كان أخواي في  
منتصف المرحلة العالية من تعليمها ، وكنت أنا قد أنهيتها والتحقت بوظيفة  
في الاسكندرية . وكان والدي قد ترك لنا ثروة تكفي مطالبنا وحاجياتنا  
ولهذا فقد رحت أتصرف في مررتي كيفما أشاء . وساعد بعدي عن بقية  
العائلة في انطلاقي من كل قيد ، واندفاعي في الحياة بلا تفكير . . كنت  
مفتوناً بفلسفة الوجوديين ، وكنت أتتبع كتابات الكتاب العرب الذين  
يسرون على هذا النهج ، وسرعان ما تأثرت بهم ورحت أطبق آراءهم في  
حياتي وتصرفاتي مزهواً منتفحاً على غيري ممن يعيشون بأوهام القرون  
الوسطى ومعتقداتها .. ونقلت الى القاهرة واطلعت والديني على بعض  
تصرفاتي التي كانت تعدها خروجاً على التقاليد والدين ما بعده خروج .  
وأخذت تؤنبي تارة وتصحني أخرى . كنت أحاول إفهامها عبثاً أن  
الانسان في هذا العصر قد أصبح سيد نفسه يتصرف حسبما يرى ويفكر

وليس لقوة ما ان ترغمه على تصرف لا يريد به . وكان هذا الكلام يحزنها فتركني صامتة مستاءة . أما أنا فكنت أعزو ذلك طبعاً الى سنها ، والى العصر الذي نشأت فيه ، والى المعتقدات التي لا تزال تؤمن بها . ثم أنطلق من جديد مفتوناً بقدرة الانسان وتحرره . قدرته التي سيطر بها على كل شيء ، وحطم بها جميع القوى ، وأصبح حراً في تفكيره وتصوره ، واختيار لون حياته ، دون وصاية ودون قيود .

بهذه الروح كنت أمضي معكم ومع غيركم من الاصدقاء . . ثم كان ذلك الحادث وذلك اليوم الذي تعرفون . اليوم الذي توفي فيه (عمي حامد) كما كنت أدعوه منذ طفولتي . . وأنتم لا تعرفون بالضبط نوع الصلة التي كانت تربطنا به . كل ما عرفتموه يوم وفاته انه كان جاراً ونسيباً لنا منذ زمن بعيد . أما الحقيقة فقد كانت أكبر من هذا بكثير . كان في شعورنا جميعاً مثل أبي تماماً ؟ كان هو وأبي لا يفترقان إلا ساعات العمل والنوم ، وكان البيتان متجاورين ، ولكنها كانت متصلين من الداخل بباب صغير ، علامة على اختلاط العائلتين واتصالهما واتحاد حياتهما . لقد نشأنا معاً نحن وبعض أبنائه إخوة متحابين متفاهمين . لم يكن يفرق في حبه بيننا وبين أبنائه . حتى من قبل ان يتزوج أحد أبنائه بإحدى شقيقاتي ، وشقيقي من إحدى بناته ، الى حد أنه قد جافى أحد أبنائه ، ومنعنا من الاختلاط به عندما علم انه قد اعتنق مبدءاً ملحداً واختلط بأقران سوء . خوفاً على ديننا ومعتقداتنا . وعندما توفي أبي كان شعورنا ان أحد والدينا قد توفي وبقي الآخر يرعانا ويمنحنا من حبه مثل ما كان

ينحنا والدنا الحقيقي .. وعندما انحدرت الى الطريق الذي سرت فيه كان هو الوحيد الذي أخافه وأخشاه بدون تفكير . وكنت أحرص كل الحرص ألا يعرف عني شيئاً يسيء الى سمعتي عنده . . حتى أتيت بقيت شهراً أتهرب من لقائه عندما علمت أن والدتي قد أخبرته بشيء عن سلوكي .. وعندما لقيني مصادفة اضطربت وخجلت ، وخجل إلي أنه سيشتمي ويقاطعي . ولكنه لم يصنع ، بل ناداني وجلس بجانبني وأخذ يتحدثني حديثاً طويلاً عن الخلق وعن الدين وعن الله وعن الدنيا الزائلة الغانية التي لا تستحق أن يحسر الانسان من أجلها رضاء الله .. وخجلت يومها أن أحدثه بأفكاري وبفلسفتي التي أسير عليها ، ورحت أستمع اليه صامتاً مبدياً استعدادي لأن أسير كما يريد .. ورغم أني لم أقتنع يومها بحديثه ولا باحساسه بالأشياء فان شيئاً ما كان يحتلج في شعوري وأفا استمع الى حديثه المؤمن العميق .

ثم كان مرضه المفاجيء الذي استدعى نقله الى أحد المستشفيات الخاصة لاجراء عملية له ، والذي كان يستدعي أن أكون بجانبه بين وقت وآخر كأحد أبنائه .. لقد انقطعت عنكم تلك الفترة وعن غيركم من الاصدقاء . ولم يكن شعوري شعور المكروه في هذا العمل ، بل كان حبي له يدفعني لأن أدع كل شيء وأجلس بجانبه أحدثه وأرفه عنه وأخفف عن نفسه وطأة المرض ، كان شعوراً غريباً بالنسبة لنفس قد فسدت فيها كل شيء . ولكن يبدو أنه كان الجانب الوحيد الذي بقي في نفسي سليماً ، لم تمسه أفكاري . الى أن كانت تلك الليلة عندما اشتد



عليه المرض وبدا أن لا فائدة من بقاءه في المستشفى ، فقررنا نقله الى البيت في الصباح الباكر . ولكن يا للعجز البشري ، بضع ساعات حتى الصباح لم يكن في مقدور ذلك العدد من الاطباء المعالجين ، ومن الاهل والابناء أن يتسكوا بحياة المريض حتى تمضي .. لقد أسلم الروح في الحادية عشرة مساء .

وعدنا به في السيارة ، جثة هامدة لا تحس ولا تسمع ولا تمي ولا تهتز لشيء . جثة لا تحمل من شكل الاحياء غير السمت وذلك الهيكل المحدد ولكن لاحول له ولا قوة ، كصخرة من الاشياء تقلبها وتضعها حسبما تشاء .. وحين وضع في فراشه ولف بأغطيته وانطلقت الصرخات من كل جانب ، وانطلق النحيب المكبوت طوال الطريق . رأيت ابنه الذي طالما هزأ وسخر من كل شيء بقوله المتدينون . رأيت به يبكي عند سرير الراقد الغائب ، ويهز أطراف الحشية وهو يقول : أبي .. لم تقل إنك ذاهب الآن . هل مازلت غاضباً مني ؟ .. ثم ينخرط في بكاء طويل دون ان يتحرك الهاجع الصامت أو يمد يداً أو ذراعاً ، أو يربت على ظهر النادم المستغفر ..

وبعد ساعات هدأت العاصفة الحزينة وآوت الحاضرات من الاهل والاقارب الى إحدى الغرف بعض الوقت ريثما يعود بعضهم الى إعداد البيت لجنازة الصباح .. وجلسنا نحن ، أنا واخوتي وأبناءؤه وزوج إحدى كريماته وبعض أقاربه الآخرين . وقد أخذ بعضهم يتحدث ويتشاور في شؤون الغد الذي لم يبق عليه غير ساعات . وكان الحديث كله يدور

حول الجنازة وحول الغائبين من الاهل الذين لم يأتوا بعد ، ثم حول  
الدفن ، ومن سيذهب الى المقبرة ومن سيبقى لبقية الشؤون .. ووصلت  
الى أذني كلمة « الدفن » دفن من ؟ دفن تلك الجثة الممدة فوق الفراش  
يحيطها وينبع منها الصقيع . أم دفن ذلك الرائح الغادي المنتصب القامة رغم  
الكبر ، الدائب الحركة والنشاط والتنقل ؟ أم ذلك الوجه المعبر ، المرح  
البشوش الذكي ، الراضي الحاني ، الغاضب المؤنب ، الساخر المهكم ،  
الضاحك المتحدث القوي السمات ؟ هل يعقل وبهذه السرعة ان تكون  
كل هذه المعاني والمجسات قد تحولت الى ذلك الهيكل الصامت الممدد في  
الفراش بلا حركة ولا أنفاس ؟ أجل انه هو ! ولم تثبت الصورة  
الجديدة في خيالي غير لحظة ، لحظة المقارنة السريعة . ثم سرعان ما رحت  
أستعيد في ذاكرتي مئات الصور القديمة والحديثة سواء .. صورته وهو  
يلاطفني ويداعبني ويرعاني ، طفلاً ويافعاً وشاباً . صورته وهو يبكي أبي  
أو يبكي ابنته التي اختطفها الموت في شرح الشباب ، صورته وهو ينصحني  
ويدعو لي متمنياً لي النجاح قبيل الامتحانات . صورته وهو يسقي حديقة  
بيته الظليلة الجميلة ويجمع منها الزهر في الصباح . صورته وهو يقطع  
الشارع الطويل في الصباح المبكر وقبيل الغروب في تمهل ووقار ، حتى  
لا يهرم جسمه ويذبل بعد إحاطته الى المعاش . صورته وهو يلقي فكاهاته  
الساخرة من الحياة والاحياء ، وعلى وجهه تلك الابتسامة التي كانت  
لا تفارقه إلا لماساً ، رغم همه ومصائب حياته . صورته وهو يصلي في  
خشوع ووقار مسبحاً داعياً الله ان يهدي ابنه الذي ضل ، وأن يصبره

هو على بلاء الدنيا .. عشرات الصور التي وعمها له ذا كرتي منذ طفولتي حتى ذلك اليوم . فاذا بكلمة « الدفن » تبدو غريبة مفزعة هائلة .. نعم ان الجثث تدفن ولكن هذه الصور العديدة الحية كيف تدفن ويسري عليها مايسري على ذلك الهيكل الراقد بلا حراك ؟ . وأحسست اني أكاد أهذي . فتسللت بعد قليل الى شرفة من الشرفات ووقفت هناك أتطلع الى الظلام الكثيف من حولي ولم اشعر بلفحات البرد تحترق لحمي وتصل الى عظامي . وتطلعت الى السماء التي كانت النجوم تلمع في ارجائها اللانهائية ، وتبعث ببعض الشعاع الذي لا يكاد يصل الى الارض . . وعادت الصور البعيدة والقريبة تتدافع الى ذهني وترحم خيالي ، وأحضرت بينها الصورة المفاجئة التي تجذب كل ما مر من صور . صورة الجثة التي ستدفن في الصباح .. وكدت أصرخ وأجأر من هذه المفارقة الهائلة المذهلة . . ولست أدري كيف قفزت الى خاطري بعد قليل كلمات كنت قد قرأتها لكاتب عربي يسير على النهج الوجودي ويتنج فيه . كان يقول في أولها : إن الانسان قد تغلب على قوى الطبيعة وقهرها أو كاد . وأنه حر في تقرير مصيره واختياره بيده ، وأنه لم تعد هناك قوة تقهره على عمل شيء لا يريد . ثم يقول في نهاية المقال : ان الوجود الارضي هو كل شيء بالنسبة للانسان . وان عليه أن يملأ هذا الوجود بما يترأى له بعد ان أصبح حراً ، وأن ينزع من تفكيره تلك الخرافة القديمة بأن ثمة قوة أخرى تشرع ، وأن عليه ان يطيع ذلك التشريع . وغير ذلك من الكلمات والآراء التي يرددها هؤلاء في فتنة وخيلاء . لست ادري

ما الذي جعل هذه الكلمات والمعاني تقفز الى ذهني فأتأمل معانيها ومدلولاتها ، وبدت لي هذه الكلمات جوفاء لامعنى لها ولا مدلول . أشبه ما تكون بخطوط مبثورة في كومة من الرمال تجريها يد طفل غرير ، وهو يعث ويلعب . وبدا لي قائلها الذي كنت أعجب به وبأسلوبه المنمق . بدا لي قزماً تافهاً سطحياً لا كيان له ولا وزن . ورحت أسخر من كلماته الجوفاء . من ذلك الذي ملك مصيره وسيطر على قوى الطبيعة وأصبح قادراً على كل شيء ؛ هذا الخلق الذي لا يملك ان يحيا بضع ساعات حين تسلب منه الحياة ؟ هذا الذي يتحول في لحظة من ذلك الكيان الحي المتحرك الذي تتوالت في نفسه وعلى ذهنه آلاف الصور ، ومئات الامنيات وعشرات الآمال ، الى ذلك الهيكل المتصلب البارد الذي لا تنبعث منه حركة او نأمة ، ولا تند منه دمة او بسة ، ولا يخفق في قلبه أمل او تدب في نفسه أمنية من الامنيات ؟ . هذا الخلق الذي لا يملك حتى وهو حي ان يعرف سر اللحظة القادمة التي لا يفصلها عنه اكثر من دقيقة من الزمان ؟ أهذا هو الذي يشرع لنفسه ويختار ، ويملاً وجوده بما يترامى له ويتفق ومزاجه وأهواء نفسه ؟ يا للعبث الصياني وبالسفاهة التفكير ! وعمدت أتطلع الى السماء ، الى الفضاء الهائل الذي يحوي الملايين . وتلاشيت في شعوري لحظة . لم أعد أحس بوجودي ، فمن أنا في ضخامة هذا الوجود ؟ هذا الخلق الضئيل الصغير ؟ وما لبثت ان انحنيت على حافة الشرفة وأخذت أبكي . لقد أحسست بالله ؟ بالقوة الكبرى التي أوجدتني وأوجدت هذا

الوجود كله ، القوة التي تملك نفسي وحياتي ومصيري ، القوة التي تدركني ولا ادركها وتراني ولا أراها ، وتحبيني ولا أحويها .. أخذت أبكي خشوعاً واستغفاراً وتوبة .. اني ذرة في هذا الوجود الكبير ، لا ينبغي لها ان تشذ او تعترض ارادة الخالق القدير . بل يجب ان تسير طائعة مختارة ، متناسقة مع الوجود الذي هي صورة منه ، ماضية الى الهدف الكبير الذي أراده خالق هذا الوجود .

لقد تحولت الى مؤمن في لحظات ، وكان الذي سحب بقدرته تلك الشعلة الواهجة من ذلك الجسد فأحاله الى جثة قد بدأ يذب فيها التلف ، قد سحب من نفسي أيضاً ذلك الغرور المضحك وذلك الشرود التافه ، ووضع في مكانها صواباً واستسلاماً ، وجففت دموعي ودخلت مطأطئاً رأسي حانياً هامتي .. وأبصرت بالقوم يهامسون في حديثهم وأبصرت ببعض الحاضرات يرحن ويحجن ويتداولن في بعض الشؤون هامسات في حديثهن ومشيهن ، ولا سيما عندما يقتربن من الغرفة التي رقد فيها الميت . تماماً كما كن يصنعن وهو حي نائم في الغرفة .. وعدت أسخر من الانسان الذي أصبح حراً في تفكيره لاسيطرة لقوة عليه . هذا المخلوق الذي لا يستطيع الحقائق الهائلة أن تأخذ مكانها في حسه وتفكيره إلا بعد زمن طويل . إن الصورة السابقة للأب النائم ليستريح لم تستطع الحقيقة الهائلة أن تمحوها أو ترحزها من مكانها من أذهان القوم . لقد نسوا أن داخل الغرفة المغلقة ( جثة ) لا تشعر بالحركات

والكلمات ولا تتألم لشيء ، حتى أنا نفسي رحت أصنع ما يصنعون كما  
اقتربت من الحجرة المعلقة !

وظلع الصباح وحمل الراحل الى حيث يرقد رقدته الاخيرة . وكنت  
أنا من بين الذين ذهبوا الى المقبرة . . كانت الصور تمر أمامي وكأنما  
أشاهد حلماً مزعجاً . لقد كففت عن البكاء وكأن الدموع قد جفت في  
عيني . كانت السخرية العميقة اللاذعة تملأ نفسي .. هذا هو الانسان الذي  
يعصي ويتحدى ويقترح على الله ويشرع له قوانين غير قوانينه . ها هو  
ذا في النهاية لا يملك حتى أن يبدي رأيه في المكان الضيق الذي سيوضع  
فيه ، أهو متعب أم مريح ؟ أهو ضيق خائق أم متسع منبسط ؟ أهو  
رطب مبلل أم جاف خشن ؟ لاشيء من ذلك كله ، كومة من اللحم  
والعظام توضع داخل الحفرة الضيقة ثم يعلق عليها ثم تتحلل بعد حين ..  
وتولاني شعور غريب فيه فزع هائل من هذه الناحية البائسة وفيه  
حسرة قاتلة . وتلفت حولي في هلع وكأنما أبني مهرباً من هذه النهاية .  
وتخيلت نفسي في هذه الحفرة وقد غادرني القوم بعد أن أهالوا على التراب  
وأخرجني من هذا الجزع صوت أحد الحاضرين المسنين وهو يردد في  
استسلام : « إنا لله وإنا اليه راجعون » : أجل ان الله وانا اليه راجعون .  
إننا عائدون الى الله . وما هذه الحفرة البائسة إلا نقلة طريق . هكذا  
قال الله . وانداح في كيانني شعور مريح ، فيه اطمئنان وفيه استسلام  
إننا عائدون . وليست هذه الفترة القصيرة التي تقضيها على الارض هي كل  
شيء بالنسبة لنا . عائدون رغم هذا المصير التعس الذي لا يتصوره العقل .

وفي السرايق الذي أقيم للعزاء رحمت أستمع إلى القرآن بكل نفسي وأحس كل كلمة وكل معنى . وتمتيت لو يهتدي الأحياء جميعاً إلى هذا النور .. ومنذ تلك الليلة أصبحت انساناً جديداً . إنساناً يعيش في النور . ومن ثم لا يريد أن يخطيء . لا يريد أن يرتكب تلك الحماقات التي كان يرتكبها وهو يسير في الظلام . يريد أن يرضي الله وأن ينال جزاء هذا الرضاء عندما يعود ، عندما يبعث مرة أخرى من بين الركام ، هذا هو أنا الآن . شخص آخر غير الذي عرفتموه من قبل . شخص له سمات جديدة وتصرفات جديدة . شخص لن يذهب إلى مرقص أو حانة ، ولن يتطلع إلى جسد راقصة قدرة أو وجه آثم النظرات .. ولهذا اقترحت أن نحجى إلى هذا المكان الهادئ الجميل الذي لا يخلو من المخالفات ولكن الانسان يستطيع فيه أن يتجنبها ويغض الطرف عنها ، ويتيح له هذا الفضاء الذي يحيط بالمكان أن يكون قريباً من الله ...

ولم يكذبتم كلمته الاخيرة حتى صاح أحد أصحابه قائلاً :

— لقد فسدت والله ولم يعد فيك أمل !

وتبسم ضاحكاً في تهكم ثم قال :

— إنني أدعو الله لكم أن تفسدوا مثلي ، وأن ينقذكم مما أنتم فيه .

ثم أخذوا يتناقشون ، هو يجذب طريقته التي اهتدى إليها وهم يجذبون طريقتهم في الحياة . ولكن حديثهم كان في هذه المرة خالياً من اللامبالاة كان أشبه باعتذار مقنع عن حياة الفوها ولم يعد في مقدورهم أن يتصوروا الحياة على غير هذه الصورة .. ومر الوقت سريعاً دون أن يشعروا .

وانحدر قرص الشمس وراء التلال البعيدة . وتلاشت الأشعة الباقية ، وانتشرت في الافق خيوط وبقع من الشفق الرقيق ، بعضها لامع كخيوط الذهب وبعضها يميل الى الاحمرار .. ثم مالبت صوت المؤذن أن انطلق من المذيع من داخل المبنى يكبر الله الكبير المتعال ، وصمت ثلاثهم برهة . وأنصت هو باهتمام وعلى شفثيه ذبذبات وفي عينيه خشوع .. وعندما سكت الصوت وتأهبوا لمغادرة المكان والعودة الى القاهرة ، تلفت هو الى خارج سور الكازينو حيث كان جماعة من الناس ينتحون مكانا من الصحراء و يقيمون الصلاة . ثم قال وهو يتسم : — لا بد أن تنتظروني هنا حتى أؤدي صلاة المغرب مع هؤلاء .. هؤلاء أصحابي ..!

وتركهم ومضى مسرعا الى الخارج ، ولم ير نظراتهم المتعجبة ، ولا ملاحظهم التي طفت عليها الدهشة وعلاها الاستغراب ...

\* \* \*



## أشواك في الطريق

كانت وفاء صديقتها منذ سبع سنوات . منذ ان كانتا في المرحلة الثانوية من تعليمها لم تفرقا حتى في دراستها العالية ، الا عندما تزوجت وفاء وعاشت عامين بعيداً عن العاصمة . ثم عادت عندما نقل زوجها الى عمل في احدى الوزارات .. عادت لتجدها قد تغيرت واعتنقت أفكاراً جديدة ومبادئ مغايرة لما سارتا عليه طوال مدة دراستها .. ولقد ناقشتها وفاء في صعوبة السير على تلك المبادئ في عصر ابتعد عنها ، ولم يعد يطبق السير بضع خطوات في طريقها . وبينت لها العقبات التي تعترض طريقها والتي قد تغير من تمسكها بهذه المبادئ . ولكنها كانت قد اقتنعت بأنها على صواب وأنها على استعداد لان تتحدى العقبات وأن تشق طريقها هي ومن سرن معها في الطريق رغم تلك الصعوبات ..

وهاي ذي اليوم تواجه إحدى تلك العقبات التي حذرتها منها صديقتها منذ عام مضى فلم تلتق الى ذلك التحذير بالا .. لقد ظلت على تمسكها وراحت تتعمق في دراسة دينها ومبادئه وقوانينه ، وتحاول في اثناء ذلك ان تقنع صديقتها بالسير معها في هذا الطريق . اذ كانت ترى فيها قلباً صالحاً للايمان ، وفكراً ناضجاً ، ونفساً رقيقة صافية . حتى

أوشكت أن تمضي معها لولا ما كان من معارضة زوجها ووقوفه في طريق هدايتها .

فإذا استقول لها وفاء اليوم عندما تخبرها أنها على وشك الانفصال عن خطيها بسبب مبدئها ؟ بعد ما تبينت من تصرفاته أنه خاوي النفس والقلب ، وانه أبعد ما يكون عن السير في ذلك الطريق ؟ على عكس ما كان يبدو عندما تقدم لخطبتها ، وكان يستميلها بالموافقة على السير معها حتى تعلمن له ، ثم يعمل على إخراجها خطوة خطوة من دينها ويعددها عن تعاليمه ووصاياه .. ولقد كان هذا بالاتفاق مع أهلها الذين يريدون إبعادها عن ذلك الطريق . إنها عرفت هذا صدفه منذ بضعة أيام عندما كانت مقبلة من الخارج وكان خطيها هناك . وسمعت والدتها واختها الكبرى تقولان له : « ستكون أبرع رجل لو استطعت ان تنزع من رأسها تلك الافكار الخاطئة وتجعلها فتاة طبيعية » ، فرد عليها : « إني أعمل على ذلك ولكن يبطاء حتى لاتكشف هي ذلك فتمند وتصبر . وأنا واثق من أنها ستصبح في النهاية كما تبغون » . عرفت بهذه المصادفة أنهم يتآمرون على دينها ويدبرون طرق إخراجها منه ، فاستيقظت لما يدبر لها واستعدت للنضال ..

لقد أخبرت خالها - سندها الوحيد في هذا النضال وهو الذي كان سبباً في اتجاهها هذا الاتجاه - أخبرته بما سمعت وأعلمها برأيه وترك لها أن تختار هي بين رضاء الله ورضاء أهلها وخطيها عنها .. فاختارت رضاء الله وغضب الآخرين .

وقالت لها صديقتهما دهشة وهي تحدثها بأمر تصميمها على فسخ خطبتها  
التي مضى عليها ما يقرب من نصف العام :  
إنك إذن قد جنت يا منحة ، إذا كنت تفكرين على هذا النحو ،  
قالت وهي تحاول أن تبسم :

أعلم أنك ستقولين هذا وسيقوله كل من يعلم بهذا الامر . ولكي  
مقتنعة بأن ما سأفعله هو الصواب . فماذا ستكون حياتي مع إنسان  
يخالفني في عقيدتي ، ويعصي الله ، ويأبى أن يطيع أمراً من أوامره ؟  
إنها ستكون حياة عيسة ، وسوف تتحطم في يوم ما ، لو مضيت فيها  
ولم أُنْهَها من الآن ..

— معنى هذا أنك قد قررت أن تخسري حياتك ومستقبلك الى  
الأبد . لأن هذا سيكون موقف كل شاب آخر . ان الرجال لم يعودوا  
يطيقون شيئاً من قيود الدين ..  
— تقصدين انهم قد تساوا بالحيوانات . الحيوانات وحدها هي التي  
تنتقل بغير قيود ولا حدود .

— سمي هذا بما شئت ولكنها الحقيقة .. فهل تضحكين بمستقبلك بهذه  
السهولة ؟ يجب ان تفكري ملياً ولا تنساقى وراء عواطفك ، ان الامر ليس  
سهلاً كما تتصورين . إنها حياتك ومستقبلك .

— أعلم يا وفاء أنها حياتي ومستقبلي وان الامر ليس سهلاً على نفسي  
فقد مضى ما يقرب من نصف عام وأنا أحلم بحياتي الجديدة وأعد نفسي  
لها . وأنت تعلمين ان هذا الشخص بالذات كان له تقدير خاص في نفسي

يوم كنت أعتقد أنه سيمضي معي في الطريق ولكن هل أخالف الله  
من أجل انسان . أياً كان هذا الانسان ؟

- ان الله غفور رحيم . أليس عالماً بقلبك ؟

- نعم انه يعلم بقلبي ، ويطلب مني في ذات الوقت - بعد ان هداني  
اليه - ألا أخالفه وأرضي انساناً حتى لو كان أبي - فالله يقول (لا طاعة  
لخلق في معصية الخالق) فما رأيك في هذا القول ؟

وأجاب وفاء وقد اتقلت بالحديث الجاد الى الهزل . وهي تشير الى  
زيمها بسخرية :

- بالمنحة يجب ان تفكري بطريقة أخرى . هل يعجبك شكلك  
مثلا في هذا الزي الذي تصرين على ارتدائه ؟ انك تحفين كل جمالك  
وتبدين عكسه - ولو أظمت أهلك وخطيبك لبدا جمالك كاملاً بدل  
هذا المنظر الغريب .

- يبدو ان الفطرة نفسها قد اختلت ، وإلا فما الذي يدفع زوجاً  
او خطيباً لأن يعرض محاسن زوجته او خطيبته على الآخرين ، تماماً كما  
تعرض البضائع والاشياء على واجهة المحال والدكاكين ؟! ألا يكفيه ان  
يرى هو وحده هذا الجمال .

قالت وفاء متجاهلة :

- أنت مصممة اذن على التضحية بمستقبلك . هذا المظهر وحده  
كفيل بأن يبعد عنك كل من يفكر في التقدم اليك ، وبصفتي صديقة  
مخلصة أنصحك بأن تفكري ملياً قبل أن تقدي على فسخ خطبتك وإلا  
فأنت الخاسرة .

قالت وهي تبلع ريقها الذي جف :

- ليكن هذا .. قد يكون امتحان الله لي في هذا الاتجاه . وأنا  
أرجو ألا أرسب في الامتحان ..

قالت وفاء بأسف حقيقي :

- أقول لك الحق . إنني أتمنى الآن لو لم تكوني قد سرت في هذا  
الطريق الوعر . وفي نفسي حنق على خالك الذي تسبب في جذبك وتقوية  
هذا الاتجاه . انك صديقتي وعزيزة علي ، وكنت أحب ان أراك سعيدة  
في حياتك موفقة في مستقبلك ..

قالت وهي تتسم في شيء من المرارة :

- شكراً . أما أنا فلست نادمة ولا حاققة . كل ما في الأمر أنني أعد  
نفسى الآن لتحمل مشاق الطريق . لقد بدأت اختباري من الله وأرجو  
أن أنجح في هذا الاختبار . فقد أفقد مستقبلي كما تقولين . ولكي سأمضي  
في الاختبار الى نهايته . فالله يقول : ( أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ  
يقولوا آمنّاوهم لا يفطنون ؟ ) لا بد أن أضحي بشيء من رغباتي ومصالحى  
في سبيل رضاء الله .

وساد الصمت برهة بينها حتى قطعت الخادمة التي جاءت تبيء سيدها  
بجبيء ضيفات لها . فاتهزت هي هذه الفرصة واستأذنت في الذهاب .  
وقد حاولت وفاء استيقاها ولكنها اعتذرت ووعدتها بالجيء مرة أخرى  
في القريب ، وقالت لها وفاء وهي تودعها : « فكري مرة أخرى يا منحة  
قبل ان تحسبي في الأمر . حاولي ان تتفاهمي معه فقد يقتنع بوجهة نظرك »

وهزت رأسها مبتسمة في بأس ، ومضت مسرعة ، وكأن شيئاً ما يقود  
خطواتها ، وبلغت محطة المترو وهي لا تكاد تشعر بوقع أقدامها في الطريق .  
وركبت وهي موزعة الفكر والقلب .. وهناك على المقعد جلست وأسندت  
رأسها بيدها وأخذت تفكر ..

\* \* \*

لقد وددت لو لم تجيء الى صديقتها . ولم تعرض عليها مشكلة حياتها  
ومستقبلها . فقد كانت تظن أنها ستوافقها على وجهة نظرها ، أو أنها على  
الأقل لا تسد أمامها طريق الأمل بهذه الصورة المثبطة للنفس ، وتسمعها  
كل ما أسمعته لها والدتها في الصباح . إنها نفس الكلمات ونفس التحذيرات ..  
إن أحداً لن يوافقها إذن على وجهة نظرها سوى خالها الذي سار بها في  
الطريق ، وغذى عقلها وروحها بما آمن به من قبل . انها تقف وحدها  
وتواجه العقبات . تواجه المجتمع الجاهلي في أفكاره ومعتقداته وفلسفاته ،  
تواجه أسلحته الكثيرة المغرية بينما لا تملك هي غير سلاح الإيمان . فهل  
تراها ستتخطم وتقضي عليها الكثرة الفاسدة ؟ أم ستصمد وتقاوم وتفوز  
في النهاية ؟ .. ورفعت وجهها نحو الأفق الذي بدا من النافذة . وتطلعت  
لحظة الى النجوم التي لمعت أشعتها الخافتة في السماء . وتمتمت بلهفة :  
يا رب هل ستدعني أسقط أمام العقبات ؟ أم ستساعدني برحمتك على  
المضي في الطريق ؟ ..

وعادت الى ذهنها كلمات صديقتها وهي تناقشها : « ان الله غفور رحيم  
وهو يعلم أنك مجبرة على ذلك وإلا فلن تجدي أحداً يرضى بك .. » وبدا

لها ان هذا القول ربما يكون صحيحاً ، فالله يعلم أنها لا تملك حرية التصرف مثل الرجال . إنها مقيدة بطبيعتها وحياتها الفطري حتى لو أعطيت كل حريات الرجال في القول والعمل . ولهذا فقد يغفر الله لها روضوها للواقع والسير مع « مختار » والتجاوز عن بعض أوامر الدين لكي تعيش . لكي لا تصبح سخرية ومثار تندر الجميع ، لكي لا تحتمل الوحدة في حياتها طوال العمر اذا لم توفق الى شريك بمن يحافظون على دينهم . إنها مضطرة وقد يغفر الله لها فهو أعلم بموقفها !

واستراحت لحظة لهذا الشعور . ثم مالبت أن فزعت لهذا الخاطر وهتفت تعاقب نفسها :

ها قد سقطت في الفتنة ولم تصمدي للاختبار . لماذا لا تعتمدين على الله القادر على كل شيء ؟ هل يستطيع الناس أن يضروك بشيء ان كان الله لا يريد ؟ وعادت تستغفر الله وتضرع اليه أن يغفر لها ويقومها على الصمود أمام ضعفها وأمام قسوة الموقف .. وبللت أهدابها الدموع وهي تشكو الى الله وترجو منه العون والقوة .. وكانت قد وصلت الى محطتها فانصبت واقفة وقد استعادت ثباتها لتغادر المترو .

\* \* \*

وفي الطريق الى البيت كانت تحس أنها تعيش حقيقة في حديث الرسول ﷺ ( ليأتي زمن يكون فيه القابض على دينه كالقبايض على حجرة من النار ) انها تشعر بأنها تقبض على حجرة حقاً . فهي لم تخلق بطبيعة زاهدة في مباحج الدنيا ، بل ان طبيعتها أقرب الى

الى الاندفاع ومشاعرها أقرب الى التوقد .. لقد كانت تمنى - وهي  
تقرأ مواقف الكفاح في بدء الاسلام لو كانت هي قد وجدت في تلك الفترة  
واشتركت مع المكافحين . كانت تمنى بصدق أن تكون احدى  
المكافحات . فهل ترى قد استجاب الله لتلك الأمنية فمنحها الكفاح في  
هذا الميدان ؟ قد يكون ذلك . ولكنه كفاح شاق بالنسبة لطبيعتها  
وموقفها كفتاة . ولكن هل يكون الكفاح إلا شاقاً مريراً؟ ..

كانت خطواتها تسرع وتبطيء حسب انفعالاتها الداخلية . ولقد  
اختارت في عودتها طريقاً طويلاً . فما كانت تريد العودة سريعاً الى البيت  
كانت تعرف أن والدتها هناك في انتظارها ، وكذلك اخوتها . وكلهن  
يقفون ضد رأبها وطريقها ، ويريدون القضاء على مقاومتها بكل مالدتهم  
من قوة اساليب وحجج .

سارت في طريق ساكن بعض الشيء لكي يساعدها هدوؤه على  
المضي في تفكيرها وحسم موقفها ومالبت أن بدا لها شبحان يسيران  
على البعد . تبينتها بعد قليل فاذا هما جارتهما البعيدة ( إلهام ) وخطيبها  
وكيل النيابة الشاب . وبدا لها أنها سعيدان الى آخر ماتعطي الحياة من  
سعادة انها متفاهمان في جاهليتهما ، وسألت نفسها وهي تتطلع اليهما في  
مشيتها الخليعة : هل تريد هي أن تكون في هذا المكان ؟ فتاة مستهتره  
المظهر خليعة الحركات تسمح لنفسها أن تسير على هذا النحو مع خطيبها  
بعد يومين فقط من اعلان الخطبة ؟ هل تقبل هذا بدل موقفها المحير  
الذي تواجهه ؟ ولم تتردد في الرفض . ولكنها أحست أنها اذ ترفض أن



تعيش كما تعيش الأنعام على هذا النحو لا تقوى على التجرد نهائياً من الدنيا لو تحتم عليها ذلك .. وعادت الى ذهنها صورة الامس وما حدث فيه ومادار من نقاش حين دعاهم مختار الى سهرة في أحد الملاهي الذي ترقص فيه احدى الراقصات الاجنبيات مع فرقها الكبيرة .. لقد رفضت أن تشارك في هذا الهبوط وأن تمضي مع المجتمع الجاهلي في هذا المجال الهابط بعد أن رفعتها عقيدتها الى هذا المستوى النظيف .

لقد ثار الكل في وجهها وسخروا منها ما شاءت لهم السخرية . وحاول مختار أن يناقشها باللين ليقنعها بخطأ رأيها . باستحالة تنفيذ تعاليم الدين في هذا العصر . بعدم جدوى تمسكها بهذه المثل والمجتمع كله يسير ضدها .. ولكنه لم يفلح . لقد واتتها شجاعة غريبة وهي تدافع عن مثلها النظيفة الكريمة .. حدثتهم عن أمثلة حية من المجتمع الذي يدافعون عنه وعن مثله وعاداته . وكانت أختها الكبرى أقرب مثل اليهم . فلقد تركها زوجها ليعيش مع احدى فتيات الكباريات مدة عامين . ثم عاد اليها عندما ضيقت عليه الخناق بطلب النفقة الكبيرة لها ولأولادها . عاد ليعيش مكرهاً معها . ولتعيش في قلق دائم كلما تطلع من نافذة أو عاد متأخراً في الليل ؛ وحدثتهم عن جارتهم التي تسهر في الحفلات ثم تعود في آخر الليل تتمايل من كثرة ما شربت وتغني وترقص في الطريق ؛ ثم حدثتهم عن قريبتها التي تذهب هي وزوجها الى حفلات عرض الازياء ليعودوا في كل مرة على أثر شجار بينها ، لأنه حدق طويلاً في قوام احدى العارصات او ابتسم لأحدهن ؛ ثم عن كثير وكثير مما وعته

ذاكرتها وما تعرف من حوادث وأشياء عن المجتمع الذي جفا الدين وسار على هواه واندفع الى الدمار ..

ولم يستطيعوا الاستمرار في المغالطة طويلا ، واعترفوا في النهاية بضعفهم عن السير في الطريق القويم . الطريق الذي يعصمهم عن كل المآسي التي يسببها الانحلال والسير على قانون الغاب . اعترفوا ولكنهم عادوا يحاولون جذبها الى طريقهم . فلما رفضت خرج مختارا غاضبا لأنها رفضت دعوته . لأنها أهانت بهذا الرفض الذي سبق أن صنعت مثله من قبل فاحتمله أملا في تغيير خطتها .. وعنفها والدتها واخوتها وحذرنا من المضي في عنادها وفي جنونها كما يسمونه .

وفي الصباح تحدث اليهم مختارا متنازلا عن غضبه ، وليخبرها بأنه قد حجز مكانا في ملهى آخر اذا كانت قد اعترضت على الذهاب الى ذلك الملهى الذي ترقص فيه الفرقة الأجنبية .. وامتلات نفسها بالمرارة وهي تتأمل هذا التصرف ، وتخبره بأنها لم تعترض على ملهى دون ملهى ، وانما كان اعتراضها على مبدأ الذهاب الى الملاهي عموما وكلها خليعة ماجنة .. وأخذت والدتها السماعه منها وتحدثت اليه ووعدته بأنها ستصحبها معها ، وطمأنته على ذلك !

وفي الموعد المحدد كانت هي ترتدي ملابسها وتخبرهم بأنها ذاهبة لزيارة صديقتها ، وتركتهم يتصرفون مع مختار كما يحلو لهم .. لقد اعترمت أن تفسخ خطبتها بعد ما تبين لها أن المضي معه مستحيل ، وبينها هذا

التباين . وأن من الخير لها أن تصنع ذلك من الآن بدل أن تصنعه بعد ذلك . بعد أن يصبح ارتباطها رسمياً لايسهل فصره .

وهاهي ذي صديقتها تأخذها أيضاً في موقفها وتقف في صف الآخرين ؛



ووصلت الى البيت ووقفت لحظة مترددة في الدخول . انها لا تريد أن تدخل ، لا تريد أن تواجه العاصفة من جديد . لا تريد أن تبدو ميزومة أمامهم بهذا الهم الذي يلا نفسها وينشي ملاحظها .. انها تريد أن تبدو قوية متماسكة وهي تقرر فوز عقيدتها في نفسها على رغبتها في الحياة المستقرة .. ولكن كيف تحفي هذا الهم وتواريه ، انها وحيدة لاسندلها سوى ايمانها بالله الذي هداها اليه وسط هذا الظلام .

وواتها شجاعة وقتية لتواجه القوم . وتقدمت بخطوات ثابتة الى الداخل مستعدة لمواجهة العاصفة .. ولم تجد والدتها ولا اخوتها هناك . وسلمتها الخادمة ورقة صغيرة تركتها لها والدتها .. وقرأتها لتوها .. كانت ترجوها فيها أن ترتدي ملابسها التي تصلح لسهرة متأخرة ، وأن تلحق بهم ، وأن تعمل على مداواة الخطأ حتى لا تفقد خطيبها الذي يتمسك بها ، ويريد الا تغلب افكارها الطائشة على عقلها الراجح ، وتفقد سعادتها المنتظرة التي يعمل على تحقيقها ويحلم بها .

ولم تبس بكلمة ودلفت الى غرفتها وأعلقت بابها من دونها وارتمت على الفراش منهارة بكلي .

ومضت عدة دقائق قبل أن ترفع رأسها وتجلس لتفكر .. هل تطيع رجاء والدتها ورجاء مختار وتذهب هذه المرة ثم تحاول اقناعهم من جديد؟

انها مرة ولن تكررهما . مرة تحاول بها محاولة أخيرة اصلاح مختار . فقد يصلح بالبين والطاعة بدل هذا الموقف المتشدد . فقد تكسبه للعقيدة ولها . فهو طيب ودود .

وتحركت من مكانها وفتحت دولاب ملابسها لتنتقي منها مايليق .. وفجأة تراجع يدها ووقفت جامدة تجاه الملابس .. أحست أنها تخدع نفسها وتموه على الله . إنها تراجع أمام الضغط وأمام الصعوبات . وإلا فما الذى يدفع مختار لأن يغير من خطته وأن يهتدي مادامت هي التي تراجع وتسير معه ؟

وجلست مهدودة متهاككة لا تقوى على شيء ..

وما لبث ذهنها أن امتلأ بصور عديدة تمثل مستقبلها فيما لو تراجعت ومضت مع التيار .. صورتها وهي تنتقي ثيابها - ثياب العرس - ثم أاث منزلها ورياشه . والشقة الجميلة التي أشار إليها مختار في احدى البنائات الفخمة لتكون سكناً لها . وثوب زفافها الذي وعدتها أمها إياه ، والذي رأت تصميمه في احدى « فترينات » العرض . وحليها ومصاغها ، وطرحه زفافها الجميلة .. والمدعوات من صديقاتها ومعارف عائلتها . والحفل الذى سيحييه أحد المطربين المشهورين .. والسيارة التي ستذهب بها الى بيتها في نهاية الحفل بين الدعوات والتمنيات ؟

وأفاقت على صوت الساعة تدق النصف بعد العاشرة .. وتساءلت : أين هي من كل ذلك الآن ؟ لقد بقيت ساعة أو ساعتان . لتقذف بكل هذه الأحلام وتلقي بها بعيداً .. ساعتان يتحدد فيها مصير

حياتها ومستقبلها . إما هذه الصور الزاهية الجميلة ومعها غضب الله أو ذلك الفراغ الدنيوي الذي قد يكون من نصيبها نتيجة تمسكها بموقفها . بعقيدتها التي احبتها وآمنت بها . برضاء الله وجزائه .

وأعيها الصراع وأرهقتها الحيرة . فدفنت وجهها في الفراش الذي تجلس بجانبه وأحاطته بذراعا وحاولت أن توقف ذهنها عن التفكير .. وكادت تحس احساساً مادياً بلذعة الجمر الذي تقبض عليه بيديها وهي تحافظ على دينها وسط الضلال .

وانقضى الوقت ولم تتحرك لتذهب . لم يعد هناك وقت . فهم عائدون بعد قليل .. وفجأة تغير شعورها . انبعث الى نفسها شيء من النور ، انها احدى الذين يمثلون تلك الصورة التي أشار اليها الرسول ﷺ صورة القابض على الجمر وهو يحافظ على دينه ، انها اذن قريبة من الله وهو يراها في صراعها مع الضلال . والله لا يترك عباده المؤمنين ..

وقبل أن يعودوا ، كانت قد دلفت الى دورة المياه لتوضاً وتصلي العشاء . وفي الشرفة الواسعة التي تنتهي بسلم الى الحديقة والتي تظلل الاشجار قسماً منها وقفت تصلي .. ومالبت الهم أن اتراح عن نفسها وبدأ الرضاء يتسرب اليها شيئاً فشيئاً وهي تتلو الآيات وتنفعل بها ..

وعندما فرغت من صلاتها توجهت بدعاء حار الى الله ، حملته كل شكواها ومتاعبها ، وكل ما ترجوه من فضله .. وأحست ان الله يتقبل دعاءها وأنه قريب منها - تحس رحمته ورضوانه وأنه سيعينها في صراعها وسيبدل خوفها أمناً وسيساعدتها على المضي ، في الطريق ، المملوء بالاشواك .

## الغائب الذي عاد

كان كثيرون من أهل القرية . ممن شهدوا تلك المأساة ، يتطلعون الى ذلك اليوم الذي يعود فيه العز والسعادة الى ذلك البيت الكريم من بيوت القرية القليلة المعروفة بالكرم وحسن الخلق . كان الكل ينتظرون عودة الرجال الثلاثة الذين قضوا في السجن عمراً مديداً بعد تلك المعركة التي حدثت بينهم وبين جيرانهم في الحقل ، وأطاحت ببعض الرؤوس من رجال العائلتين وألقت بالباقيين في السجون يقضون فيها المدد المختلفة التي حكم بها عليهم ، كل حسب ما ثبت عليه من ذنب بعد التحقيق . لقد كانت عقوبة كل من الثلاثة هي الاشغال الشاقة المؤبدة . قضوا اكثر من نصفها ثم علم أنهم خارجون بعفو في عيد من الاعياد الوطنية .

إن معظم أهل القرية يحبون هذا البيت . بيت هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كان أحدهم في الخامسة والثلاثين يوم سجن ، وكان الآخران شابين صغيرين لم يتعد كلاهما الثانية والعشرين من عمره . يحبون أهله ، ويأسون لما أصابهم من غدر جيرانهم واعتدائهم ، مما ألجأهم للأخذ بشأر الذين قتلهم أولئك الاشرار ، حين أنكر الشهود ما رأوا ، وضاعت معالم الجريمة ، وخرج الاشرار يتبجحون ويحاولون استفزازهم من جديد .

ومنذ ان علم نبأ الافراج عنهم والناس يتوافدون على البيت للتهنئة والدعاء ان يبارك الله في العائدين ليعيدوا الى البيت بهجته وعززه . ولقد عاد الى البيت الكبير بعض بهائه ومجده ، وعادت اليه الحركة والحياة ، فالكل يستعد لذلك اليوم الذي سيصل فيه الغائبون الثلاثة الى ديارهم التي انتظرتهم طويلاً ، طويلاً . فصاحب البيت الذي بقي بعد المعركة ، والذي كان لا يتعدى السادسة عشرة من عمره يوم قتل أبوه وعمه وسجن عمه الآخر وأخوه وابن عمه القليل ، والذي حمل العبء وحده هو وجده العجوز المتهالك ، هذا الراعي الصغير الذي أنضجه العبء الثقيل الذي ألقى على كتفيه ، يستعد الآن لاستقبال أخيه وابن عمه وعمه بآداد ( الدوار ) وتجديد مقاعده وأدواته التي أغلقت عليها الابواب منذ ذلك الحين ، وحزنت على أصحابها كما حزن أهل الدار ، وعلاها الصداً والتراب ، ولها العنكبوت بخيوطه ونسجها على مر السنين .

أما في الداخل ، في البيت الكبير فقد كانت النساء تستعد بطريقة أخرى . كن ينظفن القمح ويرسلن به الى المطحن استعداداً لعمل آلاف الأرغفة التي ستوزع في ذلك اليوم على الفقراء من أهل القرية مع لحوم الذبائح ، ولاطعام عشرات الضيوف الذين سيحضرون للتهنئة والسلام من أهل القرية والقرى المجاورة . وكن يخرجن الأواني الكبيرة ، التي سوف تستعمل لطهو الذبائح ، من مخابئها التي قبع فيها طويلاً ، لتنظف ويزال صدؤها تماماً كما سيزال الصداً من القلوب . قلوب الأهل

والاصحاب الذين طالت عليهم الغيبة وطال الفراق حتى يئست النفوس  
من اللقاء ومن العودة ..

يكل شيء قد دبت فيه الحياة وعلاه البشر والنور . ماعدا وجهه  
( سنية ) زوجة ( محمود ) الذي بقي من المعركة وابنة عمه وخطيبة أخيه  
فيما مضى قبل ان يحدث العراك ويذهب الى السجن .. كانت هي الوحيدة  
التي يعلو وجهها الشroud ، وتدفع الى عينها الدموع كما خلت الى نفسها  
في مكان ، وتضع على وجهها البسمة الباهتة كما خشيت ان يفتضح أمر  
مشاعرها الدفينة التي بعثها هذا الحدث الذي لم تكن تنتظره الآن، والذي  
هز كيانها وأيقظ قلبها وعواطفها التي حسبت أنها قد ماتت ولم تعد قابلة  
للحياة ، بعد ان صارت زوجة لديها خمسة من الاطفال ، وبعد ان دامت  
الظروف والتقاليد على قلبها المعذب المغبون . إنها تخشى ان يلحظ من  
حولها ما يعتمل في قلبها منذ ان سمعت ذلك الخبر المفرح والمخزن، لها في  
آن . تخشى ان يلحظ محمود هذا المم وهذا الشroud ويعرف ان قلبها لم  
ينس حسان شقيقه العائد من السجن ، أية وصمة وأية فضيحة ستكون  
حين يلحظ أهل البيت ذلك ، وتهمس به من حولها الشفاه ، وتتسرب  
الى القرية أبناء هذا الشعور ؟

وقمت لو أن هذا اليوم جاء وهي مغيبة في الثرى حتى لا ترى وجه  
حسان مرة أخرى ، وحتى لا تلوك سيرتها القرية ، لو فشلت في اخفاء  
مشاعرها وهمست من حولها الشفاه . فلسوف تكون سبياً في تدنيس  
سمة البيت الذي عاش منذ بعيد معروفاً بحسن سيرة نساؤه وطيب خلقهن .



وبكت وهي جالسة في حجرتها ترضع طفلها الذي يبلغ الشهر التاسع من عمره ، قبل ان تهبط الى صحن الدار ، وتشترك مع بقية أهل البيت في اعداد العدة لاستقبال القادمين الأعراء . بكت على حظها العاثر الذي أوقفها هذا الموقف ، وعلى سمعة البيت وأهله خوفاً من ان تسيء اليها بما صحا في نفسها من ذكريات ، وما تحرك في قلبها من آلام ..  
ومرت الذكريات والاحداث في خاطرها كومضات خاطفة ملتبهة بعد ان نامت وعلاها الرماد .



كانت في السادسة عشرة يوم تبدت لها الدنيا بوجهها الاسود المكفهر بعد ان كانت تبسم لها وتدللها منذ ان كانت طفلة صغيرة . فقد ولدت وترعرعت في بيت عريق من بيوت القرية التي تتبع مركزاً من مراكز الصعيد . ولدت وتربت مدللة هي وابنة عمها التي تكبرها بعام ، على غير عادة أهل الصعيد في معاملة البنات ، وكان لمكانة العائلة وغناها دخل كبير في هذه المعاملة التي لا يتمتع بها غير فتيات معدودات ، كبنات العمدة وشيخ البلد أو من يعادلها مركزاً أو مالا . مما كان يجعلها تتيه هي وابنة عمها على غيرها من فتيات القرية العاديات اللاتي يعاملن كما تعامل البهيم والدواب أو دون ذلك في كثير من الاحيان . وقد ظلت تذهب الى مدرسة القرية هي وابنة عمها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، في الوقت الذي كانت تحرم غيرها من الفتيات من التعليم والذهاب الى المدرسة ، - ما عدا القليلات - بحجة عدم حاجة الفتاة الى التعليم وعدم استطاعة أهلها الاستغناء عنهن في البيت والحقل . أما هما فقد كان عيشهما الرغيد يتيح لهما الوقت ، وكان أبواهما المذان نالا قسطاً من

التعليم والثقافة الدينية ، يصران على تعليمها ، ورنع مستواها ، تنفيذاً لتعاليم الدين الذي كانا يتمسكان به ويعملان بكثير من تعاليمه . وكانت كل منها تعد لتكون زوجة لابن عمها الذي يتلقى تعليمه الثانوي في المركز الذي تتبعه القرية .. كل هذا كان يجعلها تبدو وكأنها ليست من بنات القرية التافهات المهملات المهدرات الآدمية والشعور ..

وعندما بلغت هي السادسة عشرة من عمرها وبلغت ابنة عمها السابعة عشرة ، كان البيت الكبير يستعد لعقد قرانها هي على حسان ابن عمها الاكبر الذي يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وقران ابنة عمها على شقيقها علي الذي يكبرها بخمسة أعوام . وكان عمها وأبوها يعدان لها بيتين جديدين بالقرب من البيت الكبير إعداداً حديثاً .. كانت الدنيا تضحك لها وتبسم ، وكانت هي سعيدة تأتمة بالبسمة العريضة والضحكات الى أن كان ذلك اليوم الذي انقلبت فيه الضحكات الى عويل والى صراخ متعدد النبرات . ذلك اليوم الذي كان منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، يوم ذهب ابوها وعمها الى حقل من حقولها الكثيرة يشرفان على ربه من « الما كينة » المقامة هناك ، التي يشاركها فيها بعض الاهالي من أصحاب الاراضي المجاورة . وهناك تحداها بعض الذين كانوا يحقدون عليها من ما لكي الارض المجاورة . الذين غاظهم أن تنتج ارضها اتاجاً يفوق اتاج تلك الارض التي يملكونها .. تحدوها وسدوا قناة الماء عن أرضها وفتحوها في أرضهم ثم بغير حق ، وبغير قنون من قوانين القرية التي تعارف الكل عليها . ولم يتشاجر الأب ولا الم أو ينتزعا حقها بالقوة ،

فقد كانا يكرهان النزع والشقاق ويترفعان عنه ، ويحاولان ان ينهيا كل خلاف عن طريق التفاهم والمودة . ولكن هذا الطريق لم يفلح مع الاشرار المتعنتين . ولم يجدا أمامها غير الالتجاء الى العمدة الذي عمل على إعادة حقها اليها لا حياً في هذا الحق ، ولكن طمعاً في رشوة سخية منها فيما بعد . وأسر الاشرار هذا في نفوسهم من ناحية ، وندم العمدة على ماصع من ناحية أخرى ، حين وجد الهدية غير كافية وطمع في اكثر منها .. ودار الهمس في القرية عن اتفاق خفي بين العمدة وبين أولئك الاشرار الذين عملوا على اشباع تلك الرغبة في أكل المال الحرام من كل طريق ، وتقدم الاشرار بالصلح بعد أيام قلائل من ذلك الخلاف وأظهروا الود للأخوين الطيبين ، وعاد الصفاء بين الجيران وصدق الاخوان هذا الخداع . وفي ليلة من ليالي الربيع الحارة ، والحصاد على الابواب ، انطلقت بضغ رصاصات على الأخوين العائدين من الحقل بعد الغروب فأردتهما قتيلين ، وأصابت الحارس الذي كان يسير معها في أحد ذراعيه وفر الخادم المرافق كالمجنون ليبلغ الخبر المشؤوم الى أهل البيت الذين كانوا يستعدون للعشاء ، وابتظرون العائدين من الحقل ، لقد صرخت يومها وخرجت تجري حاسرة الرأس لا تدري من أمرها شيئاً متخطية تقاليد البيت ناسية أنها قد صارت فتاة كبيرة يسري عليها ما يسري على كل نسائه . خرجت حاسرة حتى أعادها بعض أهلها في منتصف الطريق وكانت ليلة مروعة فقد فيها البيت عائلته الاساسيين ، ولم يعد هناك سوى الأب الثاكل العجوز والعم الاصغر وبضعة شبان صغار ..

ولم تثبت الجريمة على أحد في اثناء التحقيق وبرى المتهمون كلهم بتدبير العمدة ، ولكن القرية كلها راحت تهمس وتؤكد ان القتلة هم أولئك الاشرار الذين أظهروا الود وسووا الامور لكي يندروا بعد ذلك وهم مطمئنون . وحزم ابنا القتيلين أمرهما وقرراهما وعمهما الانتقام والأخذ بشأري الأب والم . وتحينوا فرصة احتكاك مدير وأطاحوا بثلاثة رؤوس من رؤوس أعدائهم ، وكان يوماً لم تشهد له القرية مثيلاً ولم تر أحلك منه يوماً .. وحكم على الثلاثة بالاشغال الشاقة المؤبدة .

وبهذا انتهى أملها وتبددت أحلامها الندية واقبلت حياتها الى ظلام متصل . وعاش أفراد البيت الكبير في ماتم دائم يتخلله الخوف على حياة الشاب الوحيد الذي بقي من المعركة ، وهو محمود أخو حسان الاصفر الذي لم يتعد السادسة عشرة ، لقد كانوا يخافون ان ينتقم أهل الاشرار الذين قتلوا فلا يتركون في البيت سوى النساء والاطفال الصغار والمعجوز الذي شل وبات ميتاً حياً لاحول له ولا قوة .

ومضت أعوام ثلاثة . وهجعت الاحزان على الراحلين وراحت القلوب تنتظر في أسى وبأس مضي السنوات الطويلة حتى يعود المبعدون الذين يقضون مدة العقوبة وراء القضبان .. وكان لا بد أن يتصرف أهلها في أمرها وأمر ابنة عمها . فلم يعد من المعقول أن تظلا في انتظار الغائبين أكثر من عشرين عاماً . ورضيت ابنة عمها بالزواج من قريب لها . أما هي فقد رفضت ان تتزوج ( محمود ) شقيق حسان الذي كانت تحس أنه مازال طفلاً رغم سرعة انضاج العبد له ، ورغم تحمله مسؤولية البيت

في الداخل والخارج . رفضت وأبدت استعدادها لأن تنتظر خطيبها  
الغائب حتى يعود .

وما ان سمع أهلها منها ذلك الرفض حتى عجبوا وثاروا وهددوا باخاد  
أنفاسها ان هي أصرت على هذا العصيان . فما شأنها هي وهذا الأمر  
الذي يخص أهلها وولاية أمورها الذين يقررون ويتصرفون ؟ لقد قال لها  
خالها يوم ذاك وهو ينهرها والشرر يتطاير من عينيه : « ماذا فهمت ؟  
أراك قد ظننت أنه لم يعد هناك في العائلة رجال يحكمونك ؟ لقد بقي من  
يستطيع أن يدفئك حية اذا أنت خرجت من طاعتنا! ما الفرق بين حسان  
ومحمود ؟ أليساها ابني عمك ؟ أم تريدان أن تلوثي سمعة الاسرة بما لم تصنعه  
فتاة في القرية كلها ممن هن أقل منك حسباً وشرفاً ؟ »

ولم تجرؤ يوماً على ان تقول لخالها التائر : انها قد سمعت مرة من  
قريبها الموظف في العاصمة أن الدين يحتم على أهل الفتاة أن يأخذوا رأيها  
في أمر زواجها ، وأنه لا يجوز أن ترغم على زوج لا تريده . خافت أن  
تقول ذلك فيخمد أنفاسها ، أو يشوه وجهها بضربة من يده القاسية ،  
فازوت في ركن ترتعش خوفاً وهلعاً . وتم لأهلها ما أرادوا ، وعقدوا  
قرانها على محمود . وحرموا عليها حتى ان تبكي أو تبدي ما يقبلها من هم  
وحزن . فلم يعد أمامها إلا أن تحتلس الدموع اختلاصاً أو كلاً وجدت  
مناسبة من مناسبات الحزن الكثيرة ، كالوعد السنوي لمقتل أبيها وعمها ،  
أو عندما تسمع نساء البيت بنجر إهانة رجالهم المساجين ، أو عنق الحياة  
الشاقة التي يعيشونها ، فيسكين من أجلهم بكاء حاراً مريراً ..

\*\*\*

وعاشت بلا أمل وبلا قلب ، تقطع الحياة كالساعة لا تحسب حساباً للأيام  
أو السنين - ترضع أطفالها وتنمهم واحداً اثر واحد ، كما تصنع البهائم التي  
تعيش في البيت ، لا يفصل بينها وبينها غير جدار قصير . وبدت لمن حولها  
أنها قد نسيت الماضي ، فما عاد يهدها بعد أن صار لها أبناء ، ان يعود  
المبعدون أو لا يعودوا ، مادامت قد استقرت ، وأصبح زوجها مالكا  
لكل شيء في البيت ! نعم لقد فهم البعض هذا وغبطوها على ما هي فيه !  
أما هي فلم تكن تفكر في شيء من أمر المستقبل ، أولاً لأن السنين كانت  
ما تزال طويلة ، وثانياً لأنه ما عاد يحل لها أن تفكر في حسان أو تنتظر  
عودته أو حتى تتخيل ذلك اليوم الذي يعود فيه . مرات قليلة مرت بخيالها  
صورة مرهقة فلم تطق ان تتملاها طويلاً وطردها من ذهنها وخيالها فوراً  
وكانت تزعج من داخلها حين تفاجئها على غير توقع .. تلك الصورة  
كانت عندما يعود حسان ويخطب ويتزوج . وتعيش هي وزوجته في بيت  
واحد وحياة مشتركة ، نعم لقد أفزعها هذه الصورة البعيدة في أول  
الأمر ، ولكنها على مر السنوات لم تعد تفكر فيها إلا لحات خاطفة ثم  
تشغل عنها بمطالب حياتها وأولادها ..

وهكذا مرت السنوات الطويلة على قلبها الميت المهموم - أما الآن ،  
فقد عادت الى خيالها صور الماضي البعيد وراحت تهدد حياتها العائلية  
وتنذرها بكارثة فيما لو عجزت عن كتم مشاعرها والتغلب عليها حفظاً  
لسمعتها وحفظاً لأولادها من التشرذم ، فيما لو اكتشف محمود ما بنفسها  
وانهدمت حياتها .. ان الماضي كله يتجسم في خيالها بصوره وأحلامه

وأمانيه .. أحلامه التي هدمتها تلك الحوادث المفزعة وقوضت  
أركانها وقواعدها .. لقد راحت صورة حسان بوجهه المشرق بالبسم  
وقامته المديدة وشبابه المتفتح ، تبدي أمام عينيها أينما سارت وحيثما  
جلست - وتشوه صورة حياتها الحاضرة وتعشها بالظلام وتعفن على صورة  
محمود . هذا الذي ظلت ما يقرب من ست سنوات وهي تحس أنه طفل  
لاستطيع أن تليعه أو تحترمه أو تهتم بشعوره . حتى خضعت نفسها للواقع  
وحتى بدأت الأعباء والسنون تنضج شخصية الطفل وتحوله الى رجل  
يحترم أو يطاع .. وتمنت لو كان أهلها سمحوا لها بالبقاء بضع سنوات  
أخر ، ثم رضوا لها الزواج من غريب ، من انسان لا تعرفه ولم تعش معه  
انسان تحس أنه كبير يحترم ويطاع . اذن لكنت اسعد حالاً مما هي الآن  
، لكنت أقل حسرة على الماضي ، وأقل ألماً لهذا الحدث الذي فاجأها  
بغير حساب ، ولكنهم أرغموها على الحياة مع طفل حتى أنضجته السنوات  
بعد شقاء مرأكل قلبها ومشاعرها .

وهكذا ظلت نفسها تموج بالخواطر وتمتلىء بالمشاعر وبالآلم وترزح  
تحت هم ثقيل . وظلت تجاهد في اخفاء هذه المشاعر كلها عن أعين  
الحاضرين ، وقد ساعدها في اخفائها عن محمود انه مأخوذ بخروج أخيه ،  
دائم الحركة في الداخل والخارج ، دائم الاستعداد لهذا اليوم السعيد ..  
الى أن أصبح اليوم الموعد الذي تقرر في عوده الغائبين . وذهب  
محمود ومن معه من الاهل الى المركز بالملابس التي سيرتديها العائدون  
بعد الافراج عنهم .. في هذه الليلة لم تنم إلا دقائق متفرقة . كانت أشباح

الصباح تَوَرَّقها وتثير في نفسها الخوف من المستقبل الغامض الذي ينتظرها  
وكلمها اقتربت الساعات أحست بالاختناق وبالثقل ينحط عليها .



وأقبل الصباح واقتربت ساعة العودة ، وقد راحت تبذل قصارى  
جهدتها لتواصل تزييف مظهرها وتبدو وكأن شيئاً مالا يفرقها عن أهل  
البيت كلهم . اللهم إلا بعض التعب والاجهاد من أثر السهر ومشاكل البيت .  
وحين دخل العائدون وتقدمت أمها وأم حسان لتضما ولديهما الى  
صدريةما التليفين ، وقفت هي ذاهلة لا تدري أين هي ولا ماذا حل بها .  
لم تكن وجوه العائدين هي تلك الوجوه التي عرفتها من قبل وعاشت في  
خيالها طويلا . لم يكن وجه حسان المشرق ذو القسمات الجميلة الواضحة  
ولا قامته المعتدلة في اعتزاز . كان وجه كهل ضامر منطفيء النظرات ،  
وكانت قامته رجل قد ثقل المهم على نفسه ، فطأطأ مستسلماً مهدوداً . .  
لقد ففرت فاها لحظة وصرخت من داخلها صرخة تبدد وضياح ، ثم  
وقفت مذهولة - وقد تراخت ذراعاها ، وعندما تقدم منها مسلماً مدت  
يداً مرتعشة ، ثم سرعان ماتوارت من وسط الزحمة التي ملأت صحن  
الدار .. وهناك على احدي درجات السلم جلست مهدودة تائهة يغشي نفسها  
الهم ويملاً رأسها الدوار .. ولكنها لم تكن في هذه اللحظة نادمة على أنها  
قد تزوجت محمود !



## أشجان عيد

عندما وضع قدمه داخل السيارة التي ستقله هو وسيده من القرية الى عاصمة المديرية ، حيث يستقل القطار الى العاصمة ، انفرجت اسارير وجهه الضامر ، وأشرقت نظراته ، وأطل من نافذة السيارة وأمسك بيد شقيقه الصغير الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره ، وأخذ يداعبه بكلمات رقيقة حانية ، وبعده بشتى الوعود ، والطفل يتشبث بالسيارة ولا يرضى التخلي عنها ، فهو يريد أن يذهب معه حيث هو ذاهب . ولكن احد أقاربه حمله بعيداً على الرغم من بكائه وعويله وتمرده .

وتحركت السيارة ببطء ، ثم مالبت أن استقامت في سيرها وأسرعت ، وابتعد صراخ الطفل عن اذنيه شيئاً فشيئاً . وهو يلتفت الى الوراء حتى غاب عن عينيه . عندئذ اختفت الابتسامة من وجهه ، وانطلقاً اشراق نظراته ، وندت من عينيه دمعتان مالبت أن مسحها بكم جلبابه ، وهو يجلس صامتاً لا ينس شيئاً .

وقال له سيده الشاب الجالس بجواره : أوتبكي ؟ اليس هذا هو اليوم الذي كنت تمناه من قبل لكي تغادر القرية وتذهب الى العاصمة ، حيث تعيش هناك في النعيم ؟ فأنهمرت الدموع من عينيه وهو يحاول الرد . ثم

أجاب وهو يجتهد في الابتسام ، وقد أخذ صدره يعلو وينخفض لا يملأه  
من أحاسيس ودموع : سأذهب الى « مصر » اعيش هناك ، ولكني  
سأجيء بعد شهرين أو ثلاثة لأرى اخي واختي وارى البلد .. ثم سكت  
ولم يقل شيئاً . لم يقل شيئاً عن سبب بكائه الذي سأله عنه سيده . ولم  
يكن يقصد مراوغة ولا هروباً من الاعتراف . بل ان ذهنه وخطره  
كانا يمتثلان بصورة عودته الى القرية ثانية وان كان لم يغادرها بعد . نعم  
انه كان يتمنى هذا اليوم من زمن ويسعى له ، ولا يكاد يتصور ان امله  
سيتحقق ، وانه سيفادر الشقاء والبؤس والعمل المرهق الذي يقوم به كل  
يوم ، والذي يعجز عن أدائه شاب في العشرين ، فكيف به وهو لم  
يتجاوز الرابعة عشرة ، وليس في قوته ما يحتمل مثل هذا العناء ؟ ولكنه  
اليوم اذ يغادر القرية ، يترك شقيقه الطفل وحيدا ، بين والده القاسي  
القلب وامرأة ابيه ، وبين قريبه الذي لا يحنو عليه ولا يرعاه الا لمصلحة .  
هذا القريب الذي آواها بعد أن توفيت والدتها ، وتزوج والده  
بسواها . لقد آواها عندما سامتها امرأة ابيه العذاب ، وأجاعتها ، ثم  
طردتها آخر الأمر ، وتركتها بيتان خارج البيت ، على مصطبة قريية  
لا يحميها شيء من صقيع الليل ولا ندى الصباح ، الذي يتساقط عليها  
فيتداخلان بعضها في بعض ، وتتكش اطرافها ، فيبدو ان الناظر ككلبين  
ضالين بائسين ، لاصاحب لهما ولا مأوى .. آواها لكي يعمل هو في الحقل  
ذلك العمل الشاق المتواصل الذي مهد قواه ، ويبقى شقيقه في البيت

ضائماً مهملاً . ورغم هذا العمل المظني فإن قريبه كان لا يني عن تذكيره بأنه انما يؤويهما لله ، لأن عمله هذا لا يكفي أجره لا يوائه هو بمفرده ، فضلا عن أخيه !

ورغم أنه قد اتفق مع قريبه هذا على أن يرسل له بعد سفره نصف أجره الشهري مقابل ايواء أخيه ، فإن قلبه لم يكن يطمئن على شقيقه ، ولا يأمن لقريبه الذي لا عهد له ولا ذمة . فكثيراً ما كان يعود في المساء فيجد أخاه باكياً منتحبا ، ممرغا في التراب ، نائماً بجانب عتبة البيت ، وآثار الدموع فوق خديه . فيضمه اليه ويسأله عن سبب بكائه ، فيخبره بأن قريبه قد ضربه بالعصا على ظهره وساقيه ، لأنه أخذ رغيماً دون ان يخبر زوجته عمه أو ابنته بما أخذ . فكيف يأتمن قريبه هذا على رعاية أخيه ؟ لقد عارض قريبه في سفره عندما علم أنه اتفق مع هذا السيد الشاب على السفر معه الى المدينة حيث يعمل هناك في خدمة بيته . وهدده بأن يخبر أباه ليمنعه من السفر ، ويحبسه في البيت ، ويذيقه العذاب . كل هذا لأنه يريد للعمل في حقله . ولكن سيده هدد قريبه هذا وأخافه بما لعائلته من سيطرة في القرية ، فلان قريبه ورضخ ، ولا سيما بعد أن وعده بارسال نصف أجره اليه مقابل رعاية أخيه ..

لقد كان يحلم بخروجه من القرية الى المدينة ، وكان يعتقد أن هذا الحلم بعيد المنال ، فلما تحققت أحلامه ، راح يفكر في أخيه الذي سيدعه وحيداً بغير سند ولا راع .



وراحت السيارة تطوي الطريق الزراعي بسرعة ، وتقترب من محطة  
المدينة قبل ان يفوت موعد القطار ، وهو كالتائه ، لا يدرك من أمره  
شيئاً . وما يزال صوت أخيه في بكائه يملأ اذنيه حتى ليكاد أن يحجب كل  
صوت سواه .

وعندما وصلا الى المحطة ، واستقل القطار ، وبدأ يتحرك بها ،  
وقف امام النافذة وأخذ ينظر الى فناء المحطة وهو ينطوي ببطء ويتعد  
عن عينيه ، حتى اذا ما غاب وتلاشى قال في سذاجة ، وفي حلقه دموع  
حبيسة : ( خلاص بعدت البلد ) ثم جلس كالمهدود ، وظل صامتاً يتطلع الى  
الطريق من خلف النافذة ، مبهوراً كثيراً . غير أنه ما لبث أن تلبى  
بالمناظر السريعة المتعددة التي راحت تتعاقب أمام عينيه ، مما لم يره من  
قبل . وبين الحين والحين كان يحدث سيده بضع لحظات ثم يعود الى  
التطلع والى الصمت .

وانقضت الساعات الطويلة ، ووصل القطار الى العاصمة ، وبهر  
بما رآه ، وغاب عن ذهنه وخياله كل ما كان من صور القرية أهلها .  
وزاغت نظراته في الزحام والأنوار ، وكادت تصم اذنيه اصوات الناس  
والاقدام والعربات المنطلقة هنا وهناك في كل شبر وفي كل اتجاه .

غير أنه عندما وصل الى المنزل ورأى اجزاءه ومن فيه أحس  
بالرهبة ، وخیل اليه أنه لن يستطيع ان يعيش في هذا الجو الغريب . فما  
كانت هذه الاشياء التي يراها تجول بخاطره من قبل . وكانت الصور  
التي تدافع الى ذهنه عندما يفكر في الهجاء الى العاصمة من قبل ، صوراً

أخرى غير هذه ، غامضة متداخلة لحدود لها ولا ألوان . وعادت الى ذهنه في ومضات سريعة صور القرية ومن فيها ، وبدت له بعيدة غائرة ، وكأنها في عالم آخر لا يمت بصلة الى هذا العالم الجديد .

وظل بضعة أيام وهو لا يطمئن الا لسيدة الشاب الذي جاء معه ، والذي رآه في القرية من قبل ، غير أنه على مرور الايام اخذ يعتاد جو المنزل ، ويطمئن الى من فيه . فقد سمعهم مراراً يتحدثون عن القرية وعن بعض من فيها ، ممن يعرفهم ويعرفونه . وساعدت معاملتهم الطيبة له على استقرار نفسه ، واندماجه مع كل شيء حوله ، واستغراق قلبه الضال في السكينة والهدوء .. وابتعدت صور أخيه عن خياله قليلا قليلا .. فما عادت تعذبه وتقض مضجعه ، الا في احيان متباعدة ، عندما يستدعي ذلك حادثة ما او صورة من الصور غير أنه لم ينس وعده الذي وعده لقرينه عند الحجى ، وهو ارسال نصف اجره اليه ، فانه يعلم ماذا سيفعل قرينه بأخيه ان لم يرسل اليه هذه النقود !



واقرب العيد وعلم انهم سيشترون له ثوباً جديداً وحذاءً لتقديمه . ولم يصدق اذنيه . فما كان يستطيع ان يتصور أن الكرم سيصل بسادته الى هذا الحد . وما كان يحلم ان قدميه ستدخلان في يوم من الايام في ذلك الحذاء الذي سمع عنه ، والذي سيراه بعد أيام .. انه اذن سيكون مثل اعيان قرينه الذين كانوا يحتقرونه ويزدرونه ولا يلقون اليه بالا .. وراح يتخيل لنفسه شتى الصور وهو في ثوبه وحذائه الجديدين .

وجاءت الليلة الموعودة التي سيرتدي في صباحها جلبابه وحذاءه .  
وبات يحلم بالصباح جذلاً سعيداً . وما ان انبثق نور الفجر وتسلل من  
من النافذة الى مكانه حتى صحا مسروراً . واخذ ينهي بعض الاعمال التي  
بقيت لديه وهو يتمجل الدقائق واللحظات كما يتمي . وحانت اللحظة  
الموعودة وارتدى ملابسه الجديدة . واخذ يروح ويحيي وهو ينظر الى  
نفسه معجباً فرحاً . ومضى بعض الوقت ، وهدأت نفسه وفرحته ،  
وعاد الى هدوئه وطبيعته الصامتة ... واستأذن في الذهاب الى الخارج  
فأذن له . وعندما خرج الى الطريق قفزت الى ذهنه صورة القرية في يوم  
العيد ، وصورة اخوانه هناك . وقفزت الى نفسه امنية غريبة ، لو أنه  
هناك الآن ! انه غريب في هذا الوسط وهذا الطريق . وعاد يقول لنفسه :  
انه لو كان اليوم هناك لما كان له هذا الجلباب النظيف الجديد ، وهذا  
الحذاء اللامع الذي يضع فيه قدميه . غير انه كان يذهب الى قبر امه  
ليزورها ، ثم يعود مع اصدقائه ويتجول في طرقات القرية ومنعطفاتها ،  
ويسير خلف موكب العيد الذي يخرج من ضريح ولي الله ( الشيخ  
عبد الفتاح ) سيد القرية وراعيها ، الذي يمنع عنها الضرر والنحس :  
رغم أنه ميت من زمن بعيد ! ثم اخوه الطفل .. ماذا يلبس اليوم ؟  
وكيف هو ؟ هل سأل عنه والده ؟ .. هل ابتاع له قريسه جلباباً ولو  
رخصاً يرتديه في العيد ؟

واخرجه منظر من مناظر الطريق من هذا التفكير بعض الوقت ، ولكنه  
عندما ذهب الى منتره الضاحية صادف في مدخله طفلاً في سن اخيه ،

وفيه بعض الشبه منه . ووقف يتأمله في اشتياق ولهفة ، نعم انه يشبه اخاه ولكن أين أخوه من هذا النبي ؟ ان الطفل يلبس « بذلة » فحمة وحذاء لامعا ، ويمسك في يده عربة صغيرة يلعب بها ، وفي جيوبه ألوان أخرى من الحلوى والفاكهة ! وسار خلف الطفل يتبع خطواته هنا وهناك ..

وانقضى بعض الوقت ، ثم مضى الطفل مع أهله الى مكان آخر بعيد ، وسار في الحديقة على غير هدى يضع لحظات . وهناك في أحد الأركان جلس على مقعد منعزل عن الناس ، وعاد يفكر في شقيقه من جديد ، ويقارن بينه وبين شقيقه . لقد لبس هو اليوم هذا الجلباب الجديد . وهذا الحذاء الجديد . وأخذ عشرة قروش ( عيدته ) وأكل في الصباح أشياء لذيذة ، لا يعرف اسمها ! وسأكل في الغداء أصنافاً من الطعام والفاكهة بما أعد للغداء . بينما أخوه هناك . من يدري ؟ لعله لم يأكل غير طعامه المعتاد ، ولعلهم لم يحضر والده جلباباً غير جلبابه الممزق القذر .. ولا بد أنهم قد فعلوا ذلك ، فهو لم يرسل لهم نقوداً في هذا الشهر . فقد قال له سادته أنهم سيرسلون لقرية النقود كل شهرين لا كل شهر ، ولم يستطع أن يصر على ارسالها في هذا الشهر حتى لا يفضيهم فيردوه الى القرية ، ليعود للبؤس والعذاب من جديد . نعم إنهم يعاملونه معاملة طيبة حتى لكانه واحد منهم . ولكنه يرى في كلامهم وأعمالهم حزماً يخيفه ، فلا يستطيع ان يخرج عن حد محدود .. ولكنه ليته تجراً وأطلعهم على حقيقة موقف أخيه . ولكنه أسير رغم معاملتهم الطيبة . فمن يكون هو وأخوه بالنسبة لهم ؟ إنهم أغنياء وهو فقير . فهل يتساوى معهم وهم أولياء نعمته ؟

ولاول مرة يملأ نفسه شعور غريب . انه يريد أن يهرب .. يهرب من هذا  
النعم الى حيث يستطيع ان يتصرف في أمره وأمر أخيه كما يريد ..  
وتراءت في خياله صور غامضة لمستقبل بعيد ولكنه جميل .. ولن يعيش  
في هذا الأسر طويلاً . بل سيمضي الى أي بلد آخر . الى الاسكندرية  
أو السويس . وهناك يعمل أو يبيع شيئاً مثل أولئك الباعة المتجولين ،  
فيكسب ويعيش ، ويأتي بأخيه ليشاركه عمله وعيشه . وهناك يصبحان  
حرين طليقين من البؤس والأسر ..

وراح يحلم ويحلم .. وطال به الجلوس حتى غفا على حافة المقعد وهو  
جالس ، وطالت إغفائه حتى اقترب منه بعض الاطفال وهم يصيحون ،  
فهب من نومه مذعوراً . وتأهت نظراته لحظة فيما حوله ثم تنبه . ان  
الوقت قد تأخر ، وقد فات موعد الغداء ، ولا بد أن سادته قد غضبوا.  
فهم قد حتموا عليه الرجوع قبل الغداء بساعة على الأقل . فماذا سيصنع  
الآن ؟ إنه لن يستطيع اقناعهم بأنه قد نلم ولم يشعر بمضي الوقت ، وإذن  
فقد يعيدونه في فورة غضبهم الى القرية ، وهناك تتحطم كل آماله ، ويفقد  
هذا العيش الرغيد . ويفقد أحلامه ومشروعاته التي تقوم كلها على توفير  
بعض أجره لينفذ به مشروعاته ! . وأحس بالحنق يملأ نفسه على كل شيء .  
إنه معذب رغم هذا النعم .

ووقف لحظة لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يتصرف . ثم انطلق  
بخطوات سريعة نحو البيت ، وفي قلبه رهبة ، وفي نفسه اضطراب ، ثم  
مالث أن أجش بالبكاء وهو يضمهم بكلمات غير مفهومة ...



## ثورة

اقتربت الساعة من العاشرة ولما ينته (الاسطى) عبد التواب من كي ملابس الدكتور حسن مصطفى التي لا بد ان تعاد اليه الليلة لأنه يريدھا في الصباح . وظل اسماعيل واقفاً يناول رئيسه قطع الملابس ويستمع الى الحديث الذي كان يدور بين الاسطى وبين اثنين من معارفه أحدهما طاه في أحد البيوت القريبة والآخر «سفرجي» في بيت مجاور كانا يقضيان بعض أوقات فراغها عنده يتبادلان الاحاديث حول «الأسياذ» ومايجري في بيوتهم ، وما يتمتعون به من نعمة وبذخ .

وسمعهم يتحدثون الليلة أثناء أحاديثهم المتعددة عن زوجه هذا الطبيب صاحب هذه الملابس عن سهراتها وبذخها وأخلاقها . فعرف أنها ابنة رجل كان في يوم مامن أعوان الانجليز المخلصين ، وكان يتولى منصباً كبيراً في الدولة استطاع ان يفتي من وراثته ثروة طائلة كغيره ممن باعوا ضميرهم للشيطان . وهناك ثروة زوجها الطبيب الذي مات ضميره فبات أشبه بالتجار الجشعين منه الى طبيب يرعى المرضى ويرأف بحالمهم . كان يستمع الى هذا الحديث وغيره وفي نظراته حقد ، وعلى لسانه كلمات سباب كثيرة لم يستطع أن يتفوه بها ، خوفاً ورهبة ، مع أنه لم

يكن في المكان أحديت لهؤلاء الاسياد بصله ! واكتفى بأن يستمع الى الرجال الثلاثة وهم يسبون أولئك الاسياد في اثناء حديثهم الذي كان يجري بصوت منخفض حتى لا يسمعون أحد .

وما لبث النعاس ان تسلل الى عينيه ، فجلس بجانب الجدار على الارض الباردة التي ينبعث منها الصقيع ، ربما ينتهي رئيسه من كي بقية الملابس ليذهب هو بها الى أصحابها . وما لبث أن أحس بأصوات الرجال تبعد وتلاشي من سمعه عندما غرق في النوم وانطلقت أنفاسه المكتومة في حجره ، تعلم بصوت مسموع عن نومه الذي طالما ضايق رئيسه وأثار غضبه عليه . غير أنه لم يكن يستطيع أن يقاوم النوم وهو الذي يصحو في الخامسة صباحاً ، ويظل طوال اليوم يجوب الشوارع والطرق ذاهباً آيماً بالملابس هنا وهناك حتى قرب منتصف الليل . حيث يعود الى أمه واخوته الصغار ، بالقروش الثمانية التي يتقاضاها عن عمل اليوم . وكثيراً ما يجد إخوته الثلاثة قد ناموا بغير طعام ، وبقيت أمه ساهرة تدبر ما ستصنعه في الغد بالقروش القليلة التي لا تكاد تسد رمقهم . ولولا أن أخاه الذي يصغره بعامين يعمل خادماً في أحد البيوت ويتقاضى جنبها في الشهر لما استطاعوا ان يعيشوا ويقطنوا تلك الحجرة البالية التي تشبه الجحر ، والتي يدفعون ايجاراً لها خمسين قرشاً بعد وساطة وتزلف لصاحب البيت الذي تبلغ ثروته آلافاً من الجنيهات ، ربحها في أثناء الحرب من بيع اللحوم لقوات الحلفاء .

لقد كانت هذه حياتهم منذ ست سنوات ، منذ ان توفي والده بمصحة

الصدر التي عمل بها خمسة عشر عاماً ، وأصيب فيها بذلك المرض المعون ،  
ومضى وتركهم بغير عائل ولا رصيد .

لقد كان والده قبل ان يعمل بالمصحة ، فلاحاً من أهالي قليوب -  
وكان يزرع هو وأخوه نصف فدان من الارض تركه لهما والدهما الذي  
كان يشتغل حارساً عند احد أغنياء القرية . فلما كثر عدد افراد العائلة  
ولم يعد الناتج من نصف الفدان يكفيها ، حاول والده ان يأتي الى المدينة  
ويلتحق بأي عمل هناك يعيش منه ، ويدع لأخيه الارض القليلة ليعيش  
من محصولها هو وزوجته وأطفاله الخمسة . وسعى حتى توسط له طبيب  
من أهل القرية لدى وزارة الصحة واستطاع ان يلحقه « تمورجيا »  
باحدى مصحات الدرغ بأربعة جنيهات في الشهر . وكان هذا حدثاً بارزاً  
عند أهل القرية ، فأخذوا يهنؤونه ويدعون له بالنجاح والتوفيق .  
وبعضهم ثار في نفسه الحسد عليه ، لأنه سيعيش في المدينة ويدع بؤس  
القرية وظلامها ..

واستطاع والده بعد مضي عامين في شظف العيش نتيجة قلة مرتبه  
بالنسبة لما تحتاجه العائلة التي يزداد افرادها على مر الايام ، استطاع ان  
يتمن حقن المرضى في بيوتهم ، فيسر له هذا القيام بعمل آخر اضافي غير  
عمله الرسمي ، يدر عليه بعض الدخل الذي ساعده على العيش والسكن  
في بيت اكثر جفافاً واتساعاً ونوراً .

ورضي بهذا الرزق وانسرحت نفسه . ولكن بعد مضي سنوات  
من الجهد المتواصل ونقص التغذية أخذت صحته تتدهور رويداً رويداً

فقد كان يستيقظ عند أذان الفجر حيث يصلي ، ثم يذهب الى عمله الذي لا ينتهي الا بعد الغروب ، ثم يستأنف الطواف على منازل المرضى الذين يقوم بحفظهم . ويظل في طوافه هذا حتى ساعة متأخرة من الليل وهكذا راح يبدل من رصيد صحته بغير حساب لكي يسد حاجات أسرته ، دون ان يحسب حساباً لتعرضه للعدوى بالمرض الويل الذي يعيش وسط جراثيمه الفتاكه . وأخيراً أصيب بالمرض الفتاك دون ان يشعر او يكتشفه في مبدأ الأمر . وحين شعر به كان في دوره الاخير ورقد في المستشفى مريضاً بين مرضاه . وانقطعت عن العائلة كل النقود الاضافية التي كانت تيسر لها الحياة ، ولم يعد هناك غير مرتبه الذي كان قد وصل الى ثمانية جنيهات .. وفي فجر أحد الايام لفظ انقاسه الباقية وتركهم حيارى مشتتين .

وكان هو في الثامنة من عمره لابدرى من أمور الحياة شيئاً . وراحت والدته وعمه القروي يبدلان جهدها ويسعيان لكي يحصلوا على المكافأة التي لاتزيد على الاربعين جنيهاً . ولم يستطيعا الحصول عليها إلا بعد ستة أشهر من السعي المتواصل والذهاب والاياب الى المصالح والدواوين .

ثم توسط لهم بعض الخيرين لدى وزارة الصحة لكي تقدر لهم بعض المساعدات من الملابس وبعض المواد الغذائية . ومنحتهم الوزارة شيئاً من هذه المساعدات عن طريق أحد المستوصفات . فكانت والدته تذهب منذ الصباح الباكر من كل اسبوع ، وتجلس هناك في فناء المستوصف

هي وغيرها من البائسات اللاتي لا عائل لهن ، حتى تأتي الممرضة المختصة بتوزيع الاعانات ، فيتزاحمن عليها كالحيوانات المشردة القذرة ، بعضهم يتعلقنها وبعضهم يتزلفن لها بالدعاء والتفكك والمدح والثناء ، لكي ترضى عنهن وتصرفهن سريعاً قبل الأخرى ، أو تزيد لهن مقدار الاعانة .. أما والدته فلم تكن تحيد التعلق والرياء ولم تكن الاحداث قد علمتها هذا اللون من المهانة لكي تنال حقها . ولهذا ضاقت بها الممرضة ، وأخذت تتحين الفرص لكي تمنع عنها هذه المساعدة الضئيلة . وأخيراً استطاعت ان توم رؤساءها بأن أمه تملك بعض موارد العيش ، ولها اولاد يقومون بالخدمة في المنازل ويكفون حاجتها .. وكان أن منعت ادارة المستوصف مساعدتها ، وفشلت كل الجهود التي بذلتها أمه لاثبات حاجتها الى المساعدة . فقد كانت الممرضة أثيرة عند رؤسائها ، مسموعة الكلمة ، فلم يستطع الصوت الضعيف ان يصل الى آذانهم أو ينفذ الى ضمائرهم ! ولم تياسر أمه من السعي لدى المصالح والجمعيات لكي تقرر لها إحداها مساعدة تعينها على الحياة وتربية الصغار ، ولكن الابواب كانت دائماً تقفل في وجهها ، بينما كانت ترى غيرها ممن ليست لهن مثل حاجتها - ولكن لهن مؤهلات أخرى من الجمال أو فساد الخلق .. كانت ترى بعينها كيف تجاب مطالب هؤلاء بغير مشقة أو إذلال ، بينما تطرد هي وتهان وتصم عن شكواها الآذان ..

وأخيراً اضطرت الى دفعه هو وأخوه للعمل رغم صغر سنهما وضآلة حجمهما . أما هي فراحت تحيك بعض الملابس للأطفال ، وتتقاضى عن هذا العمل بعض النقود القليلة التي تساعد على العيش . غير أن البكاء والحسرة

الدائمة على حالها وما وصلت اليه قد ذهباً بتور عينها إلا القليل . فلم تعد تستطيع تأدية هذا العمل .. وبهذا كتب عليهم أن يعيشوا بهذه النقود القليلة التي يتقاضاها هو وشقيقه من عملها . و قليلاً ما تستطيع شقيقته المتزوجتان إمدادهم ببعض المساعدات التي تقطعانها من حياتها و حياة أطفالها . ظل يغط في نومه حتى تنبه اليه رئيسه فصرخ فيه منعفاً ساخطاً ، فهب مذعوراً وفتح عينيه بشدة كادت ان تمزق أعصابها . واستمع الى شتائم الاسطي صامتاً مطأطأ الرأس ، فقد اعتادها منه حتى باتت لا تؤذيه ولا تحرك شعوره . وحمل الملابس التي تم كبتها وسار يتعثر الى المنزل الذي كان يبعد مسافة كبيرة عن المحل . ووصل الى المنزل الناذخ بعد ان كان البرد قد نفذ الى جسمه النحيل ، وكاد ان يوقف عضلاته عن الحركة . ووقف على السلم الرخامي ريثما تأتي له الخادم بالنقود المطلوبة في فآتورة الحساب ..

ونفذت برودة الرخام الى قدميه الخافيتين فشعر بها تتقلصان . ونظر الى الداخل متطلعاً الى الثريات الكهربائية المدلاة في أشكال متعددة تزيع البصر ، والى الجدران المزدانة باللوحات الجميلة ، والى الاركان التي قبعت في زواياها التماثيل الرائعة الدقيقة ، ثم الى الارض المفروشة بالسجاد الفاخر الثمين . وتمنى لو استطاع ان يدخل ويلقي بنفسه فوق هذا الفراش الدافئ حتى الصباح ، فالنوم ما يزال يداعب جفنيه ، ويبعث الى رأسه شيء من الدوار .

ومر أمامه من الداخل صبي في مثل سنه عرف فيه ابن صاحب البيت ووجد نفسه يملق في ملابسه الصوفية الثقيلة الفاخرة . ويطيل النظر الى

قدميه اللتين تلبسان خفين من الصوف البني المحلى بخيوط من القطيفة الصفراء . وبعد قليل أبصر بكاب أبيض نظيف الشعر ، قد أحاط عنقه شريط أحمر تتدلى منه حلقة ذهبية جميلة ، يندفع اليه وهو ينبج . وقبل ان يصل اليه ناداه الصبي في لهجة مدللة ، ثم قال للكلب وهو يتسم « تعال بعيد ده وسخ ! » .. وأمضته هذه الكلمة فنظر الى ملابسه وكأنما يبحث فيها عن مدى القدارة التي حذر منها الصبي كلبه النظيف .

وادر كته الخادم في هذه اللحظة فناولته النقود المطلوبة فأخذها ومضى .. وعاد صدى الكلمات التي سمعها من الصبي يطن في اذنيه ويحفر مكانه في قلبه . وأبت كبرياؤه ان تعترف بأن الكلب يفضله . وأحس بالكرامية نحو الصبي وان لم يجرؤ خياله الذليل على رسم صورة انتقام منه . ومضى يجر رجلية المتخاذلتين من البرد والنعاس حتى بلغ احدى النواحي المظلمة التي يمر بها في الطريق . فرأى على ضوء النور الخافت الذي يأتي اليها من مصباح بعيد .. رأى كومة من القمامة تحيط بها بعض الكلاب البائسة وتبحث فيها عن فتات الطعام . واراد ان يتفادى هذه الكلاب ويمر بعيداً عنها . ولكن احدى عربات النقل فاجأته فانحرف ناحية الكلاب بسرعة جعلته يدوس ذيل احدها ، ويكاد ينكفيء على الأرض . وسقطت من يده اثناء هذه الحركة خمسة قروش من النقود التي يحملها . وبحث عنها وسط القمامة بعد ان ازاح عنها الكلاب قليلا . وقد بدا وهو يبحث وينش يديه قطع القمامة ، وكأنه احد هذه الكلاب الضالة التي تحيط بها .. ولم يستطع العثور على قروشه الضائعة . فبكى وهو يترك المكان ويمضي . انه يعرف ان هذه القروش التي ضاعت سوف

تقطع من اجره اليومي القليل فيعود الى امه بالقروش الثلاثة الباقية من اجر يومه .  
ووصل الى المحل متأخراً وقص على رئيسه ما حدث له . ولم يصدق  
الرجل قوله ، واتهمه بتبديدها ، وكان ما توقعه ، واقطعت القروش من  
اجره . . . وعاد الى امه التي كانت مازال ساهرة في انتظاره بينما نام اخوته  
في احد اركان الغرفة الرطبة ، على فراشهم البالي المتصق بالارض .  
وام والدته ما حدث له واخذت تنزل لعناتها على الرجل الذي اقتطع من  
قوتهم تلك القروش . ظلما وعدوانا . ووقف هو يستمع الى هذه  
اللغات وهو يحدق في المصباح الصغير الذي يوشك ان ينطفئ . لنفاد  
البترول منه وفي ملامحه هم وأسى .

واستعاد الكلمات التي سمعها من الصبي المدلل ، واجترأ في هذه المرة  
على أن يسبه ويلعنه في داخل نفسه - ولم يلبث ان عاوده النعاس فخطى  
بطء الى مكان نومه وسحب قليلا من الغطاء وانكش تحته . ونفذت الى  
جنبه برودة الأرض التي لا تحجبها غير تلك الطبقة الرقيقة من الخيوط  
البالية المهلهلة من بساط لا يستطيع الناظر اليه ان يتبينه من الارض الرطبة  
السوداء من تحته . وعادت الى خياله صورة البساط الثمين الجميل المقروش  
في بيت الصبي الثري والذي يشون فوقه بأحذيتهم وخفافهم . وبقيت في  
خيلته صور الاشياء الجميلة لحظات وكأنها لا تريد ان ترحبها . . . ولم يكن  
النعاس قد غيبه عندما سمع أمه تبكي حالهم وتسب رئيسه من جديد .  
وانسرت الى نفسه وخاطره الصوت الحزين المهموم . وعبست اساريره  
وتحجم وجهه . وما لبثت نفسه ان امتلأت بالحنق على رئيسه ، ثم بشورة  
مكتومة عارمة لم تتضح لها في خياله اليافع العالم ولا اهداف .



## غريب

جلس على المقعد الذي اعتاد أن يجلس عليه كل يوم . أمام محل  
سديقه البدال كما فرغ من عمله المضي الشاق ... جلس يستمع الى  
أحاديث زميل له كان قد ذهب الى قريتها ليقضي بها بضعة أيام ثم عاد ..  
لقد استيقظ في نفسه ذلك الحنين المكبوت النائم في حنايا قلبه ، الى  
طفولته وصباه ومجد عائلته الذي انقضى . أخذ يستمع الى أحاديث زميله  
عن القرية وقد طأطأ رأسه ومال بوجهه الى الارض ، وأغمض عينيه  
نصف اغماضة ، وكأنه يحلم ، وفي نفسه ذلك الحنين والشوق للماضي  
الغابر البعيد . ورفع رأسه المثقل بالاحلام وراح يسأل زميله عن والده  
وكيف صار حاله الآن .. وأجابه زميله وهو يهز رأسه في عجب وأسف  
« أوه ! والدك ؟ لكم هو مشتاق عليك يا حلمد ويتمنى ان يراك .. وهو  
على قيد الحياة .. بالله ! من كان يظن أن والدك الذي كان في يوم ما من  
أسياد البلدة وكرمائها . سيعصب في هذه الحال . ويعيش هذه العيشة  
وهو في هذه السن المتقدمة ؟

ولكنه قانع بها .. ولعل الله أن يغفر له ماضى ويجزيه خيراً عن  
هذا الصبر الجميل . لقد رجاني أن أحملك على العودة الى البلدة ولو

لبضعة أيام ، لكي يراك هو واخوتك الصغار ، الذين سمعوا عنك ولم يروك  
فلم لا تحبب رغبته وتذهب ، وترى أهلك وأصحابك بدلاً من أن تظل  
غريباً مدى الحياة ؟ ثم أليس عيشك في بلدتك خيراً من هذه الغربة  
وهذا الضنى ؟ .

ومصمص شفتيه في ألم عند سماعه لهذه الكلمات وأجاب في همهمة :  
ربما أذهب اذا أراد الله .

وفي المساء عندما عاد الى غرفته المظلمة الحظيرة المنزوية في فناء أحد  
المنازل البالية ، كانت نفسه تفيض بالحنين الهادئ السارب الى كل صورة  
من تلك الصور البعيدة التي مرت به كأحلام سريعة . وكان قد اعتزم السفر .



وفي القطار الذاهب الى الصعيد جلس في احدى عربات الدرجة  
الثالثة ، وهو بين مصدق ومكذب لهذه العودة المفاجئة بعد عشرين  
عاماً . . وترك الجمع الصاحب في العربة واتجه يبصره الى النافذة وراح  
ينظر الى الحقول والقرى الساكنة التي تمر امامه في سرعة خاطفة . وقد  
لفها القمر بغلالات رقيقة شفاقة ، فاستسلمت للنوم والسكون .

وهدأت بعد قليل أصوات الركاب وضجيجهم واستسلم للنوم منهم  
من استسلم ، وبقي من بقي مستيقظاً يتطلع الى الحقول أو يدخن أو يداعب  
عينيه النعاس . . ومالبت ان شغل عما يمر امامه بصور اخرى قديمة  
يقظها في نفسه هذا السفر المفاجئ الذي لم يخطر على باله منذ ان خرج  
من القرية مغترباً ، واعتزم الا يعود .

منذ كم من السنين كان طفلاً صغيراً يلهو بين اقرانه بلعبه القروية الجميلة التي تتكون من الكرة المصنوعة من الجوارب البالية، ومن الخدروف الخشبي وغيرها مما يتبارى به الأطفال في القرى ويعتدون ! هل كان حقاً ذلك الطفل الغني المدلل ؟ بل هل كان حقاً طفلاً في يوم من الايام شارك اقرانه العابهم المرححة التي كانوا يقومون بها في المساء في الشوارع الضيقة المظلمة ؟ كم كانت جميلة تلك الالعب وحببية الى نفسه الصغيرة بالرغم مما كان فيها من اخطار الوقوع والاصطدامات بالجدران والابواب لشدة الظلام ! وكم كان يبكي ويتحسر عندما كان يأتي اليه رفاقه ، وهم يغنون اغنيتهم المعتادة التي يحيفون بها من يمتنع عن اللعب : « اللي مايطلع يلعب يقرصه حي وعقرب . ولا المداوي يداوي ولا الحاوي يحاوي ! » .

كم كان يبكي عندما كان يحاول اللحاق برفاقه فيمنعه ابوه خوفاً عليه . وكثيراً ما كان يظل ساهراً حتى ينام ابوه او يذهب الى احدى سهراته الريفية ، فيتسلل على اطراف اصابه حتى اذا ماخرج من الباب راح يجري ويصبح صيحات الفرح والانتصار لكي يسمعه رفاقه ويقبلوا نحوه .. ايه ! كيف مرت هذه الاحلام الجميلة وكأنها لم تكن ...

ثم منذ كم من السنين كان شاباً يذهب الى حقول ابيه الواسعة لا ليشتغل بها بل ليأمر وينهى في الرجال الذين يشتغلون . والكل يتملقه ويحيب رغباته ، لأنه الابن الاكبر لصاحب الحقل ؟ كم من مرة استلقى في الظهيرة داخل الكوخ الصغير المصنوع من الطين وعيدان الذرة الجافة وراح يرقب هؤلاء الرجال وهم يحصدون القمح ، ويغنون تلك الاغنيات

الخالدة التي تسيمهم آلامهم ومتاعهم، وكم كانت جميلة تلك النسمات اللينة التي كانت تهرب اليه من حر الظهيرة وتدخل الكوخ، ثم تخرج من بين فتحاته، لتلحق بها غيرها من النسمات. انه ليكاد يسمع الآن بخياله تلك الاصوات التي كان يحدثها النسيم وهو يخرج من بين فتحات الكوخ في عنف تارة وفي لين ولطف تارة اخرى، فهتز الكوخ حيناً ويهدأ حيناً.. ثم في الليل عندما كان يرغب في المبيت في الحقل مع غيره ممن يحرسون القمح المحصود... ما كان ابدعها تلك الجلسات الجامعة امام الكوخ. حيث يجتمع هو ورفاقه وجيرانه في الحقل فيأكلون ويشربون الشاي المصنوع على تلك النار الهادئة، التي يوقدونها في حفرة في الأرض لشي ما يصطادونه في اليوم من طيور الحقل. هناك عند منتصف الليل كان ينام، او يستلقي، وتخفت الأصوات ويسكن الليل وينام البعض ويلقي اليهم القمر بنوره الجميل، فيغمر وجوههم النائمة وفراسهم وكل ماحولهم بنور فضي لا اول له ولا آخر..

كم كان يفرق في هذا النور وهذا السكون الشامل ويمضي في احلامه السعيدة وامانيه... حتى يتسلل اليه النوم وهو راض مطمئن النفس. في حراسة كلبه الامين.. وفي الصباح عندما ينبعث النور الى الكون وتدب فيه الحياة وتستيقظ العصافير وترزق فرحة بالكور.. كان يستيقظ على اصواتها اللينة ثم لا يلبث ان يجد طعام الافطار قد بعث اليه من البيت قبل ان تشرق الشمس. لقد كان مدلاً كما كان ابوه من قبل.. مترفا لا يعرف خشونة العيش ولا قسوة الاحتمال. كان مدلاً على

الرغم من ان والده كان متزوجا بغير امه ... فقد كانت زوجة ابيه سيدة فاضلة من بيت عريق يرعى الله في اعماله وتصرفاته . لم تحاول مرة ان تتدخل في شأن من شؤونه او تحرمه من شيء يريد . كانت تسوي بينه وبين اطفالها ، حتى غدت في القرية مضرب الامثال ، ليتها كانت حرمة اشياء وأشعرته بشيء من قسوة الحياة حتى يحتاط لمستقبله ويتعلم شيئاً من الحرمان . .

ثم تغيرت الاحوال بعد ذلك .. وعادت عليهم النتائج السيئة للاسراف والترف وبعثرة الاموال بغير حساب . فاذا هم فقراء لا يملكون من اراضيهم وبيوتهم شيئاً . وانحصر همه كله في كيف يجد لقمة العيش الجافة بعد الترف والنعيم .. وكان قد سمع عن ( السويس ) وما بها من اعمال . فسافر اليه بعد تردد واحجام . غير انه لم يكن ليتصور ذلك العمل الذي اضطر لقبوله . . فلو أن أحداً حدثه عنه قبل بضع سنوات . لصفعه على وجهه ثأراً مؤدباً . ساخطاً على جرأته ووقاحته غير انه لم يكن بد من الرضوخ .. وكم كان يبكي في الليل عندما كان يأوى الى غرفته الحظيرة التي لا تحتوي من الفراش إلا اليسير ويتذكر ذلك الفراش الوثير الذي كان ينام بين طياته . لا يحلم بهذا المصير .

لقد كان صعباً عليه كل هذا في أول الامر . غير انه مالبت ان يرضخ وسار مع الحياة حيث تسير .. وسافر الى البلدة بضع مرات في فترات متباعدة ، ولكن إقامته بها لم تكن تدوم غير أيام معدودات فما

كان يطبق ان يرى البيت وقد خيم عليه الظلام والكتابة . وكان بالأمس  
ينطق كل شيء فيه بالعز والثراء .

ثم علم وهو في غيبته بأن والده قد باع هذا البيت . وانتقل الى بيت  
سواه يتناسب مع حالته ومالينه . فحزن لهذا الخبر كما لو كان جزءاً من  
قلبه قد نزع عنه وأحس انه لن يستطيع العودة الى البلدة مرة أخرى ،  
ان البلدة هي هذا البيت الذي لم يعد له ولن يستطيع ان يعيش فيه يوماً  
او يجلس في صحنه الواسع ، او ينام ولو ساعة واحدة ، فوق المصطبة  
المریحة المقامة بجانب حجرة الاستقبال الواسعة المزدانة بالأعمدة الجميلة  
ومنذ ذلك الوقت لم يعد . وانقطع عن ذلك العهد الذي ذاق فيه النعيم  
حيناً والألم حيناً آخر . واستقبل عهداً جديداً فيه الغربة المريرة  
والبؤس والشقاء .

وعاش وحيداً طوال تلك السنين لا يؤنس وحدته غير ذكورياته  
العذبة التي كثيراً ما شاركته النوم والصحو والتي كثيراً ما كان يضيّق  
بها ذرعاً ويطردها عن خاطره لكي يرضى بما صار اليه في الحياة ؛ عاش  
وحيداً ولم يتخذ له زوجة ولم يعقب ولداً ، فما كان يريد ان يورث جيلاً  
آخر هذا البؤس والشقاء .. وهاهو ذا بعد تلك السنين الطوال ينوي  
ان يعود فلا يكاد يصدق أنه سيعود .

★ ★ ★

ووصل القطار الى محطة المركز الذي تتبعه بلدته . ونزل منه كالحالم  
الذي لا يصدق ما يرى . وسار في شارع طويل طالما سار فيه من قبل .

ثم تذكر في هذا الشارع بيت صديق قديمه كثيراً ما شاركه في الماضي  
لهوه ولياليه السعيدة التي كانا يقضيانها معاً في البندر ! فمضى إليه وأخذ  
يقرع الباب في حذر كالغريب الذي يطرقه لأول مرة .

وفتح الباب بعد قليل ، وظهر صديقه القديم . ولم يكن الزمن قد  
فعل بصديقه هذا ما فعل به هو . فلم يعرفه الصديق وأخذ يسأله عما يريد ،  
فلما عرفه بشخصيته لم يبد عليه أنه مهم به ولا بمجيئه بعد هذه الغيبة  
الطويلة . ولم يستضفه غير وقت قصير . ولما هم بالانصراف حاول أن  
يستبقيه بكلمات باردة ، أحس لها فجعية في نفسه . فجعية في جزء من  
ماضيه الحلي الجميل الذي يعيش على ذكره . والذي كثيراً ما يحلم بعودته  
عندما يعاود نفسه الشوق والحنين وهو في غربته .

وعندما خرج الى الطريق كانت نفسه تفيض بمشاعر كثيرة . لم  
جاء وحاول ان يعود الى البلدة مرة اخرى ؟ أو لم يقطع على نفسه عهداً  
بأن يظل بعيداً ما دامت الدنيا قد تبدلت ولم يبق من العز القديم غير  
اسمه وذكره ؟ ولمن يذهب الآن ، اذا كان صديقه القديم الذي قضى  
معه معظم أوقات سعادته قد بات لا يعرفه ولا يود ان يعرفه ، ولا يتم به  
ولا بما صار إليه ؟

كان يجب ان يعرف ان الزمن الذي أحال وجهه النضر الباسم الى  
هذا الوجه المجعد المترخي العضلات ، والذي أحال شعره الفاحم الى هذا  
البياض الاشعث ، هذا الزمن لم يقف هناك في القرية حيث كان بل سار  
بكل شيء سيره السريع البطيء ، وبذل كل شيء وغير في كل شيء كما

بدل وغير فيه . ومحا تلك الصور التي مازالت تملأ خياله والتي أوجت إليه أن يعود .. ترى مالذي سيحدث لو ذهب وساقه الحنين الى تلك الأماكن التي كان يقضي بها بعض سهراته في ليالي رمضان الحبيبة ؟ لاشك ان من بها سينظرون اليه كما ينظرون الى غريب هبط البلدة حديثاً فالذين رأوه طفلاً وشاباً لن يصدقوا أنه قد صار الى هذا المصير .

أما أولئك الذين كانوا أطفالاً ، أو ولدوا بعد رحيله ، فهم لا يعرفون عنه شيئاً ، لأنه من جيل غير جيلهم وزمان غير زمانهم ، ثم لو فكر في يوم ما ان يذهب الى حقل من تلك الحقول التي كانت ملكاً لوالده .. وحن لأن يخطو فيها بضع خطوات ، أو يقطف من ثمراتها شيئاً يتذوقه ويعيد به الى نفسه وقه طعم الماضي البعيد . أفلا ينظر اليه أحد أصحابها الآن ، أو أحد الذين يشتغلون بها غاضباً وبهرة ويعنفه ، لأنه عبث بالزرع وهو غريب عنه لا يملك منه شيئاً ؟ لم يعود اذن في عهد غير عهده وفي جيل غير جيله ؟

لقد كان مخطئاً عندما ظن أنه يستطيع ان يعيش هناك وان يعيد بعضاً من سويعات الماضي .

وانحدرت دمعتان على خديه وهو يسير . وأخذ يجفها بمندبده ويحاول ان يحبس غيرهما في عينيه . ولكن الدموع كانت أقوى من ارادته ، فراحت تنهمر غزيرة لتغسل بعضاً من هموم نفسه وأشجانها . وبدلاً من أن يبحث عن سيارة تقاه الى القرية ووجد نفسه يعود الى الخطوة الثانية ليركب أول قطار .. عائداً .. الى السويس .



## عودة القطيع

مندعام وبضعة أشهر مضت كانت بعض القرى الواقعة داخل مديرية أسوان تستعد في كثير من الفرح والغبطة لرحلة بعض ابنائها الى الشمال ، الى العاصمة حيث العمل والرزق الذي يتطلع اليه كل القاطنين في هذه القرى النائية المتناثرة هنا وهناك وسط الرمال القاحلة الجرداء ، وتحت سفح الجبل الذي يجثم عليها ويصلها شواظا من أشعة الشمس التي تنعكس عليه في الصيف ، ويلقي فوقها الصقيع في ليالي الشتاء الباردة . فقد كانت الترحيلات الى الشمال حلم الجميع ، حيث يكتسبون قوتهم اليومي ثم يدخرون ما يبقى من اجورهم لارسالهم او العوده به في نهاية العام . كان كل واحد من القادرين على العمل يتمنى أن يكون من بين الذين سيقع عليهم اختيار المقاولين الذين اتوا لأخذ ثلاثمائة نفر من أبناء هذه الكفور للعمل في تشييد بعض المصانع ومد بعض خطوط السكك الحديدية الى بعض ضواحي العاصمة الكبيرة .

وحين تم اختيار العدد المطلوب راح كل واحد من هذه الانفار يستعد للرحلة الطويلة وفي نفسه أمل وفرح ، وفي قلبه شجي لفراق أهله وأحبابه ، وفي خاطره أمنية حلوة هي أن يعود الى أهله وقد امتلأ

جنيه بالنقود ، وامتلاً كيسه ومكتله بألوان من الفاكهة والطعام والاشياء التي يسمع عن وجودها في العاصمة ولا يراها أو يتذوق طعمها اللذيذ .. وكان مصطفى من بين هذه الأنفار التي تستعد للرحلة الشاقة التي يحوطها الامل والامنيات . كان اكبر اخوته وراعيهم بعد أن مات والده وتركهم صغاراً لا يقدرّون على شيء . وكان باراً بأمه تقياً ورعاً . ولم تكن هذه الرحلة هي اولى رحلاته بل كانت الرابعة منذ أن بلغ الثامنة عشر واصبح قادراً على العمل . وكانت رحلاته الثلاث الماضية موقفة مملوءة بالخير . فقد استطاع بعد العودة من احداها ان يبني حجرة فوق سطح البيت الصغير ويعدها لزواجه عندما يستطيع في المستقبل ان يقتصد مبلغاً من المال يكفي لهر عروسه ولوازم عرسه الذي ينتظره أهله وأحبابه . وكانت ابنة خالته هي الزوجة المنتظرة التي اتفق مع ابوها على ان يرحل الى العاصمة أو أي مكان آخر يجده به عملاً لمدة عام ثم يعود ليعقد قرانه ويتم زواجه . فلما عرف أن بعض المقاولين قد جاؤوا لأخذ عدد من الأنفار كان هو أول المتقدمين للعمل والسفر . وفي أصيل أول اكتوبر كان يقف على رصيف المحطة مع غيره من الأنفار في انتظار القطار الذي سيقلمهم الى حيث يعملون .

كان يقف ساهماً صامتاً شارد الذهن يكاد يفصل عن الجميع بذهنه وقلبه . كان يفكر في والدته واخوته وخطيبته . لقد تعلق به اخوته الصغار وأخذوا يوصونه ، كل يريد طلباً من مصر . طلباً لا يتعدى أن يكون جلباباً أو شيئاً آخر من تلك الاشياء التي يحضرها

بعض الأخوة أو الآباء لأبنائهم عندما يعودون من إحدى الترحيلات ،  
فتسرحهم وتبهج نفوسهم . أما أخوه الذي يصغره يبضعة أعوام فقد أخذ  
يبكي وهو يودعه بكاء حاراً لم يسبق أن بكى مثله في رحلاته الماضية .  
لقد تعلق به أخيراً وبات لا يقوى على فراقه . أما خطيبته فلم تحضروا دواعه  
بل كان والدها هما الحاضران ، ولكنه استطاع أن يلحها من بعيد وهي  
تطلع اليه من الكوة الصغيرة المفتوحة في غرفة البيت الصغيرة .

لقد لحها تنظر اليه وعندما رآها توارت خجلاً كمادة الفتيات في  
الصعيد . واكتفى منها بهذا الوداع الصامت وتمنى ان يعود : بلوء الجيب  
بالنقود لكي يتم زواجه ويبدأ حياته السعيدة رغم ما في حياته من ضنك  
وضيق . لقد أوصاه والدها بقوله : ( انك اذا اقتصدت في نفقاتك واستطعت  
أن تدخر مبلغاً كبيراً فسوف تشتري أنا وأنت بضعة غنات نعيش من  
خيراتها من جبن ولبن وتكون عروسك أسعد فتاة في القرية ) ..  
وأهبت نفسه هذه النصيحة وملأتها بالأمل والأمنيات ، حتى لقد راح  
يفكر وهو واقف بين الجميع في انتظار القطار وكأنما يقف وحده  
لا يشاركه في المكان انسان .

أما الآخرون فقد وقفوا يتحدثون بأصواتهم العالية التي اختلطت  
وتداخلت وتوعدت ، فلم يعد أحد يعرف أولها ولا آخرها . وتعددت  
المعاني واللحاحات في وجوههم الضامرة النحيلة السمراء ، وأخذ بعض  
الشباب يضحك ويتفكه ببعض النكات الشائعة في قراهم ، وأخذ بعض  
من الشيوخ والكهول ينظرون الى الارض تارة ، والى العربات المتراسة

على القضبان الحديدية الممتدة في الارض الرملية الجافة تارة اخرى في قلق وانتظار . وأخذ البعض الآخر يتطلع الى السماء التي تنأثر فيها الشفق قانيا متوهجاً في بعض اجزائها ، وقائماً أو باهتاً في أجزائها الاخرى . وقد ران على وجوههم الأسى والهلم الكئيب . ان كلامهم لا يدري ان كان سيعود الى أهله وبلدته أم يقضي في رحلته غريباً بائساً لامدفن له يعرف أو قبراً يزار ؟

وأقبل القطار فتدافعوا اليه بمكاتلهم واكياسهم التي حملوا فيها زادهم القليل . وعلت اصواتهم وارتفع ضجيجهم وهم يتخذون اماكنهم داخل العربات بينما كان عمال القطار وموظفو المحطة يضحكون منهم ويسخرون بشتى الالفاظ والاشارات التي لا تطلق الا على الانعام وغيرها من الحيوان !

وصفر القطار مؤذناً بالرحيل . وسرعان ما تحرك . فأجهش البعض وبكى البعض الآخر في صمت وصبرهموم . وكان مصطفى من بين من دمعت عيونهم وهم صامتون .



وفي محطة العاصمة انطلقوا شاردين مذهولين تخطف ابصارهم الانوار الساطعة المتألثة هنا وهناك ، والنوافير التي تعدد ألوان المياه فيها وكأنها قوس قزح يتعدد ويتغير ما بين لحظة واخرى . ثم المباني الشاهقة التي تعلوها الاعلانات التي تنطفئ وترتعش الظلال فيها وتعدد الاشعاعات .. وصرخ بعضهم في الآخر ، من الذين جاؤا لأول مرة . انها الجنة والله !

ولم يكن هذا البعض كاذباً في شعوره ولا في قسمه . فهي الجنة حقاً اذا  
قيست بقراهم وبيوتهم . القرى التي يحجم فوقها الجبل بوحشته وقفره ،  
ولهيبه في الصيف وزمهريره في الشتاء . والبيوت التي تفصل بينها أزقة  
ضيقة قدرة ما تكاد أشعة الشمس تنحسر عنها حتى يحجم عليها الظلام  
وتغشاها الوحشة والكآبة ، وكأنها قبور تضم أشباح الموتى الذي دفنوا  
في الأرض القاحلة .. ونظر بعضهم الى التمثال الضخم الذي تنبعث  
الأنوار الى كل جزء فيه . وهتف قائلاً : انه يوشك أن يتكلم . لو كنت  
في مكانه ما تمنيت ان أموت أبداً ! .. وهكذا راح كل واحد يعلق  
على ما يرى بما يعن له وهو واقف في انتظار السيارة الكبيرة التي ستقله  
الى المكان الذي سيبدأ فيه العمل . ولم يطل انتظارهم فقد أقبلت العربات  
الكبيرة المكشوفة - ومالبثوا أن وضعوا فيها كما توضع خراف العيد .  
وتفرقت بهم كل جماعة الى مكان قريب أو بعيد عن الآخر حسب  
توزيع العمل .

وانقضى عام . صيف وشتاء . لم تعق جموعهم عن العمل حرارة  
الصيف أو زمهرير الشتاء ، كانت كل مجموعة منهم تجتمع في المساء بعد  
الفراغ من العمل المرهق الشاق ، وتجلس في ناحية بجانب جدار أو  
فوق كومة من الرمال أو كومة من الاحجار . أو في الخلاء الذي  
لا تحده جدران ولا أبنية حسب ما يقع مكان العمل . كانت كل مجموعة  
تجلس حول النار التي يوقدها بعضهم من قطع الاخشاب التي  
يجمعونها من كل مكان ، ويتناول كل واحد منهم عشاءه الذي

يتكون من العيش والبقول أو الفلافل والخبز . في سعادة رغم الجهد الشاق الذي بذله طوال اليوم . ثم يتناول قدرًا من الشاي الذي يساهم في شرائه كل فرد بقرش أو نصف قرش ، ثم يبدؤون في الغناء الذي يعبر عن شوقهم للعودة وتلهمهم على أحبابهم البعيدين ، والذي يتم أيضاً عن الرضاء والسعادة بحصولهم على أعمالهم التي يمكنهم ما يأخذونه من أجر على أدائها من الحصول على مثل هذا الطعام الذي لا يحصلون على مثله إلا وهم يؤدون هذه الاعمال ! فطعامهم في قراهم لا يتعدى قطع الخبز الجاف والملح والبصل أو ما يعادلها .. ولكنهم رغم هذا الضنك فإن صورة العودة الى قراهم كانت تملأ خيالهم ورؤاهم وكان الحنين اليها يتدفق في نغماتهم وأغابهم ونبرات أصواتهم . وكان صوت مصطفى من أشد الاصوات تعبيراً عن الحنين الى العودة ولقاء الاحباب . ولذا كان دائماً يرأس جوقة منهم ويبدأ هو في الغناء ويردد الباقيون الكلمات في نغم متسق متماوج حزين ، مثل « يا نجمة الصبح ظلي وارجمي روجي .

وسلمي لي على الاحباب وارجمي روجي .

ياخي دانا غريب يابوي .

ياخي دانا غريب يابوي .

والله فراق الحبايب ، ده أصعب من طلوع روجي .»

حتى اذا ما انقضى جزء من الليل وبدأت آثار جهد النهار تخدر عضلاتهم اليابسة وعروقهم التي تشبه أسياخ الحديد في تصلبها وسوادها انطلقوا الى أما كن نومهم المتفرقة التي كانت لا تتعدى بضع خيم في العراء

أو عربات نقل الاحجار والرمال او فوق كومة من الاحجار او  
 الاحشاب او بجانب أوعية ( الزيت ) والزيت ، أو بجانب جدران  
 البيوت المجاورة او القريبة من أما كن أعمالهم . وعندما كان الصقيع  
 يشتد في ايامي الشتاء كانوا يتدخلون في بعضهم البعض كما يفعل قطع من  
 الاغنام ، ليتقي بعض الصقيع المتساقط في الساعات الاخيرة من الليل ..  
 كان هذا حالهم في الشتاء ، أما في الصيف فقد كانت ليلاهم اكثر لينا  
 واقل قسوة من ليالات الشتاء بل لقد كانت النسمات الحانية التي تلامس  
 أجسادهم الخاوية وهم يغطون في النوم .. كانت تعوضهم عن قيظ النهار  
 الذي يلظهم ويسيل بحر عرقهم ، ويكاد يسليخ جلودهم وهم منحنون على  
 فؤوسهم التي تضرب في الاحجار تارة وسط الصحراء الملهمة الجافة  
 وفوق القضبان أخرى ، أو وهم يحملون الأتربة والرمال وعجينة البناء ،  
 ويصعدون بها الى أعلى ، أو يهبطون بها الى الحفر العميقة حيث يوضع  
 الأساس وتلك الارض . ان كل شيء لديهم يماثل الآخر . كل عمل  
 يؤدي بلا تدمير أو ملال ، يتساوى لديهم قيظ الصيف وزمهرير الشتاء  
 وصعود التلال تحت أشعة الشمس القاتلة أو تحت تساقط الامطار وعصف  
 الرياح . لقد عودهم الشظف وحياة الجفاف على احتمال المشاق وتحمل الجهد  
 الذي لا يتفق مع أجسادهم النحيلة وقوام الخاوية .



هكذا مضى عليهم العام وعاد بعضهم الى قراهم ، وبقي البعض الآخر  
 ربما ينتهي العمل في احدى المؤسسات ، وفي الخط الحديدي الذي يصل

إحدى الضواحي بالعاصمة ، وكان مصطفى من بين الذين بقوا، ومن بين من كانوا يعملون في خط الصحاحية الطويل . لقد استطاع في هذا العام ان يدخر مبلغاً من المال يكفي تكاليف زواجه ويكفي للمساهمة في شراء الاغنام التي حدثه عنها والد خطيبته . ولذا فقد راح يحلم بمستقبله السعيد الذي أوشك ان يصل اليه ..

ومر شهران وانهى العمل في الخط إلا قليلاً . لقد بقي على فريق من العمال ان يعمدوا ما تخلف من أحجار ورمال وحصى الى أما كن وحفر متفرقة داخل الصحراء التي يمتد الخط في جزء منها .. وملئت بعض العربات المخصصة لهذا وانطلقت الى داخل الصحراء فوق الخط الحديدي الصغير الذي كان يمتد مسافة طويلة في الرمال ووسط بعض التلال التي تؤخذ منها بعض احجار البناء . انطلقت تجرها قاطرة في المقدمة بينما وقف على ظهرها عدد من العمال لكي يفرغوا حمولتها ثم يعودوا للمثا من جديد . وقد أخذوا يغنون ويرقصون .. ووصلت القاطرة الى المكان واستعد الرجال لفتح حواجز العربات ، لالقاء ما فيها في الحفرة العميقة التي تقع بجوار الخط ، وتكون شبه كهف ممتد الى مسافة بعيدة .. وبدأت القاطرة تنفصل لتأخذ مكانها في مقدمة العربات لكي تجرها عائدة . وفجأة انقلبت العربات بمن فيها في جوف الكهف ، وانظر الرجال تحت اكوام التراب والأحجار .. ولم تصل عربات الانقاذ إلا بعد فترة طويلة . وعندما وصلت كانت خمس عشرة جثة قد فارق أصحابها الحياة تحت الاكوام .



ولم يشعر أحد من سكان العاصمة الأنيقة بما جرى للقطيع ! فالصحف  
لم تشر الى الحادث لأنه ليس موضع اهتمام من أحد !

\* \* \*

وبعد شهر من الزمان كانت بعض القرى تستقبل بقية أبناءها  
العائدين . وكانت بعض الزغاريد تدوي في أرجاء قرية هنا وقرية هناك .  
بينما بعض القرى كان يحيم عليها الحزن ويلفها الصمت . تلك التي فقدت  
ابناءها الخمسة عشرة .. وكانت من بينها قرية مصطفى .. وكان مصطفى  
من بين الغائبين ..

\* \* \*

## العودة

كانت صبية يافعة عندما تعلق قلبها بصلاح - ابن عمها وخطيبها فيما بعد - . . . كانت وهي طفلة تقضي شطراً من عطلتها المدرسية هناك . في « العزبة » التي يمتلكها والدها وعمها معاً . ولم يكن يصحبها - هي وشقيقها الذي يكبرها بأعوام - والدها في كل مرة . بل كثيراً ما كانا يذهبان وحدهما الى هناك ، وينطلقان مع ابن عمهما من قيود المدينة ، وقيود الدراسة . فما يبقى هناك مكان لا يذهبون اليه ، ولا لعبة من ألعاب القرية أو المدينة لا يمارسونها ..

وفي ذلك الجو الندي الساحر تربت مشاعرها ونمت .. كانت في الطفولة تعلقاً وشغفاً بالجو كله .. بالناس والطير والحيوان والزرع والمياه في الترع والمصارف .. فلما شبت عن الطوق وبدأت مشاعرها تتفتح كان صلاح هو المحور الذي تركزت حوله مشاعرها ، ورفرت حوله أشواقها الغامضة ، وآمالها الخائفة . وغدّى هذه المشاعر ونماها وجوده بينهم بعد ذلك طوال دراسته العالية .

لقد أنهى دراسته الثانوية في مدرسة المركز .. ثم انتقل بعدها الى

العاصمة ، وعاش معهم في بيت عمه . فما كان يفرق عمه بين صلاح وبين ولديه .. انه ابن شقيقه الأكبر الذي يحبه ويعزه ويترك له أرضه في « العزبة » ، المشتركة ليصرف عليها كلها . وكما كان يتنهد معها في القرية فكذلك كان يتنهد معها في المدينة .

وكان مفروضاً - عندما بلغت ليلى الخامسة عشرة أنها خطيبة صلاح . لقد عرفت هذا الامر عن طريق المصادفة .. كان والدها وعمها يتحدثان ذات ليلة وهما وحيدان في حجرة النوم . وكانت هي في الشرفة الدائرية التي تفصل ما بين حجرتها وحجرة نوم والدها .. لقد خفق قلبها بشدة وهي تسمع الكلمات التي تدور حولها وحول صلاح . واندفع الدم الى رأسها حتى كاد يغشي على عينيها ..

ومنذ تلك الليلة عاشت حلها السعيد ..

لم تكن متأكدة بما اذا كان صلاح - هو الآخر - يعرف . ولكنها كانت تجد في عينيها حين يلتقيان تلك السعادة نفسها . السعادة التي تعيش بين جنبيها . فلم تكن في حاجة الى أن تعرف شيئاً وراء هذا .

ولم يطل الوقت . ف عندما كان صلاح على وشك انهاء دراسته الجامعية ، وكانت هي قد اوشكت على انهاء دراستها في معهد البنات العالي .. أعلنت خطبتها رسمياً .. وكتب كتابها .. وكانت ليلة لم تشهد لها «العزبة» مثيلاً في بهجتها . وبدأ المستقبل في عيني ليلى بهيجا ، فلم يكن هناك منفذ لخاطر آخر غير سعادة الاحلام ..

وعندما كانت الحياة تجري في موكبها البهيج الى خاتمة العام الاخير

وهي صلاح ينتظران نهايته في لهفة .. وقع الانذار الاول ، الذي  
انزعها من الحلم الرضي .. لقد توفي والد ليلى في حادث مؤلم ..  
وتغير الجو كله .. لقد كان الحادث شديد الوقع على نفس عمها فهدده  
هذا .. وفي جو الكتابة الذي اطلقته الصدمة المفاجئة قرر عمها أن يؤجل  
الزفاف عاما كاملا على الاقل ...

وعندما ظهرت نتائج الامتحانات ظهر تفوق صلاح تفوقاً واضحاً .  
وقررت الكلية أن ترسله في بعثة الى امريكا ..

وكان هذا حادثاً جديداً جعل الأسرة تعيد التفكير في أمر زواج  
الخطيبين وسفرهما معاً . ولكن الرأي استقر في النهاية أن يسافر صلاح  
بفردته ، يرتاد الطريق ، ويرتب نفسه هناك . حتى اذا انقضى العام عاد في  
العطلة لاتمام الزفاف ، ثم سافرت معه لتمضية بقية فترة البعثة .. واستقر  
الرأي على هذا الاتجاه .. وسافر صلاح ..

لم يخالج نفس ليلى أي خاطر آخر وهي تودع صلاح مع بقية الاسرة  
على ظهر الباخرة قبل ابحارها من الميناء .. فقد كان يبدو وكأنه لا يقوى  
على فراقها . وقد قال لها - وهو يغالب دموعه ويتظاهر بالاحتمال -  
سأ كتب لك كل يوم . وان كنت قدلا استطيع ارسال ما اكتب .. وبقيت  
لحظات الوداع وكل ما قيل فيها مرتسمة في مخيلتها لاتساها .. تترامى لها  
في بقلتها ومنامها كما لو كانت لوحة منقوشة في أعصابها .. وبقيت الثقة  
المطمئنة حتى بعد أن أخذت رسائله تراخي بعد بضعة أشهر .. لقد

كانت مطمئنة . وكان هناك الف عذر له في نفسها من الدراسة والاستذكار  
والامتحان والحياة الجديدة في بلاد غريبة ..



ومر عام .. وهي مستغرقة في اعداد «جهازها» ورسم «مفارشها»  
واختيار «فساتينها» لقد كانت تعيش حياتها المقبلة وهي تعد لها  
هذا الاعداد ..

وجاءت العطلة التي انتظرتها طويلا .. ولكن صلاح ارسل الى اهله  
يعتذر .. انه لا يملك ان يحضر هذا العام . انه في حاجة الى الوقت كله  
ليستعد للعام الجديد . وليتعرف الى المجتمع الذي يعيش فيه ، والدنيا  
الجديدة التي لم يكن لديه وقت للتعرف اليها في اثناء الدراسة وهذه  
ضرورة لا بد منها تساوي قيمة البعثة من الناحية العلمية .. وطلب ارجاء  
مشروع الزواج الى العام القادم .

وأحس قلب ليلي بشيء ما .. ولكنها سرعان ما انفضت عن قلبها  
هذا الهاجس الغامض الغريب .. انها لا تشك في اخلاص صلاح ووفائه  
وحبه لها .. لقد كان من الصعب عليها ان تتصور أن قلبه يتحول ، بعد  
تلك الاعوام الطويلة التي عاشها معاً ، وبعد ما امتزجت أحلامها في بطن  
هذا الامتزاج .

وفي خلال العام الثاني تباعدت رسائله أكثر فأكثر .. وبدأ الهاجس  
الذي خطر في قلبها لحظة فطردته .. بدأ يخطر لها فلا تملك طرده .. ثم  
بدأ هذا الهاجس يتضخم حتى يفرض عليها فرضاً .. ولكن صلاح نفى

لها هذه الهواجس حين أشارت إليها من بعيد في إحدى رسائلها إليه . إلا  
ان برودة الكلمات التي تضمنها هذا النفي كانت أشد إيضاحاً .

ولم تستطع أن تبوح بمخاوفها لأُمها ولا لشقيقها . ولكنها باحت بها  
لسلوى .. ابنة خالتها وصديقتها .. التي شاركتها احساسها . وقالت  
لها : « ان امريكا لا تؤمن على خلق أو ضمير . » ولكنها دعته الى الانتظار  
حتى يعود في العطلة . وقد قارب موعدها .

★ ★ ★

وجاءت العطلة واعتذر مرة أخرى .. وأرسل ينصح لها بأن  
تتعلم كيف تكون فتاة مجتمع ناجحة . وأن تحاول ان تخرج من قالب  
التقاليد الجامدة التي تحياها .. وان تعلم الرقص .. وقال لها : انه  
يضحك الآن وهو يتخيلها تصلي كما كان يراها .. لقد كان هو الآخر  
يصلي . كان يصلي تقليداً لوالده وعمه وللجو العائلي الذي نشأ فيه ..  
ولكنه كم يضحكه هذا الآن بعد ان عاش في امريكا ، وكرر عليها  
مسألة تعلم الرقص . قال لها : إن الرقص بالنسبة للفتاة المصرية أهم من  
الصلاة ، وأنها لا يكفي ان تكون « ست بيت » فالهم ان تكون  
سيدة مجتمع !

وغاصت هذه الكلمات في قلبها كما لو كانت خنجرًا مسموماً ، أحست  
أن وراءها ما وراءها .. لقد تغير صلاح ، تغير من الأعماق ، انها  
تسمع من خلال الكلمات الصامتة في الرسالة نذيراً عالياً مخيفاً .. ولكن  
لماذا يطلب إليها ان تتغير هي الاخرى اذا كان قد نفذ يده منها ؟ ماله

وما لها إذا لم يكن يريد بها ، كما تسمع من نذير الكلمات الصامته ؟  
وعادت تتروى في مدلول الرسالة .. ما الذي يريده منها صلاح ..  
يريد منها ان تكون تلك الصورة التي كان يزدريها - وهو هنا - ويستبشعها ،  
صورة الفتاة المتبرجة الفارغة ، التي لاهم لها إلا أن تكون دمية تعجب  
الغرباء ، وتغشى كل مكان للفت النظر ، وتقيم حفلات الاستقبال المشتركة  
لعرض الازياء والفرجة ، لقد كان يسمي هذا ضياعاً وفراغاً وحيوانية  
فما باله قد تغير في عامين اثنين ؟ انها امريكا التي لا تؤتمن على خلق أو  
ضمير كما قالت لها سلوى .

ولم تستطع اخفاء الرسالة عن أمها وعن أخيها .. وتحدثت والدتها  
الى عمها - والد صلاح - في الموقف ، وإن لم تعرض عليه الرسالة . وقرر  
الرجل ان يكتب الى صلاح يطلب اليه الحضور فوراً لاتمام زفافه .  
ويحذره بأنه لن يقبل له عذراً ولا تسويفاً . والا فسيتحلى عنه منذ  
اللحظة ويقطع كل صلة به .



ومضى شهران قبل ان يرد على رسالة والده .. مضى شهران  
طويلان . وهي في شبه دوار لا تكاد تفيق منه . نفسها تهتز . كل شيء  
فيها تهتز . أملها الذي عاشته طويلاً تهتز وتقايلها العميقة في نشأتها  
تهتز . وقيمتها في نظر نفسها تهتز ، والدنيا كلها من حولها تهتز ..  
ولا تجد الارض الصلبة تحت قدميها كما كانت تجدها طوال هذه الاعوام .  
وفي أحد الأيام أقبل عمها من العزبة .. كان مكفهر الوجه . مقطب

الجبين ، عابس النظرات . وحده قلبها للأمر كله قبل أن تسمع كلمة واحدة .. وجلس عمها كما لو كان يلقي نفسه على المقعد ، وأخرج من حقيته رزمة من الاوراق والصور ألقاها فوق المنضدة . وقال والشرر يكاد يتطاير من عينيه : « عملها الخنزير .. تزوج من هناك » . وكأنما كانت هذه الكلمات صاماً انفجر من تحته البركان .. فراح يتكلم في عنف وهو ينفخ الكلمات .. إن بناتنا لم تعد لثقة بعلمه وحضارته ! بناتنا متخلفات ! تقاليدنا لاتعجبه ! وقفه في سخرية غاضبة ، ثم التفت اليها قائلاً : وهذه صورتك يا بنتي ورسائلك قد ردها إلينا .. إنه لا يستحقك ، لا يستحق أخلاقك العالية ، لا يستحق شرفك . لقد أصبح وضعاً لاشرف له ولا ضمير .. وسيعوضك الله خيراً منه . ثم سكت برهة وأكمل : سأحرمه من الميراث ، لن يدخل بيتي ومعه تلك التي أدارت عقله ، وغيرت موازينه . وجعلته يكذب علي عامين كاملين ، حتى يحتفظ بالنقود الاضافية التي كنت أرسلها له بشتى الطرق .. « سيكون نصيبه لك أنت » ..

ولم تجبني بكلمة واحدة .. إنها لم تسمعه .. سمعت الكلمات ولكنها لم تعبا ، لم تسمعه وهو يعدها بأن يعطيها نصيب صلاح في ميراثه . كانت صامئة ، لاتكاد تشعر بشيء . وكأنما قد تحجرت في المقعد ، ولم يكن وجهها يحمل غضباً ولا حزناً . كان يحمل معنى آخر أعمق من الغضب والحزن .. الهزيمة ، الضياع ، والانهيار .

ثم مالبت أن غابت عن الوعي .. ولم تشعر بعد ذلك إلا وهي تعالج من الشلل ..

\* \* \*



لم تمت .. لقد عاشت بعد العناية الضخمة التي بذلها الأطباء في انقاذها .  
من نوبة الشلل ، وأفلح الطب في علاج جسدها المريض ، وعاشت ..  
ولكنها عاشت هيكلاً مظلماً لاروح فيه ولا نور .. عاشت لاتجد نفساً ،  
ولا تعرف موقفاً من الحياة .. إنها تهتز ، كل شيء فيها يهتز ، وكل  
ما حولها يهتز أيضاً .. وعندما يبلغ الاهتزاز غايته تغيب عن وعيها ، ثم  
يردها اليه الدواء والعلاج .

شيء واحد أخذ يثبت في حسنها بعد الدوامه .. إنها ضحية التقاليد .  
وضحية الصلاة .. لو لم تكن هذه التقاليد ، لو لم تكن تصلي ، ماحدث  
شيء . وما تركها صلاح ، إنها لم تعد تحبه . ولكنها تحس بالجرح الغائر  
في كيائها كله .. وتكره تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه ، وان كانت  
لاتجد في نفسها الرغبة في الخروج منها ، إنها كذلك تكره المجتمع المتحلل  
إنها تستقدره ، ولكن لاتحب المجتمع المحافظ الذي تعيش فيه !  
إنه العذاب .



وذات يوم جاءت سلوى - صديقتها وموضع ثقنها - ومعها زائرة .  
فتاة لم ترها من قبل ، إنها فتاة محتشمة تلبس زياً مبتكراً ، انها تغطي  
شعرها ، ثيابها أنيقة ولكنها لاتظهر شيئاً من مفاتن جسمها ولا تمثل  
أعضائها ، في وجهها سماحة ، وفي صوتها رقة ، وفي حركاتها أدب ، وفي  
نبرتها حنان ، وثنى آخر رضي ..

وقدمتها سلوى اليها .. « عائشة زميلتي المدرسة معي في المدرسة »

ثم نظرت اليها وقدمتها الى الزائرة .. « ليلي بنت خالتي .. وصديقتي » ..  
كانت الزائرة تعرف مهبتها .. انها ليست قادمة لمجرد الزيارة ..  
ولكنها قادمة للعلاج . العلاج الروحي . ان الطبيب عالج ليلي من الشلل  
الجسمي . ولكن هناك الشلل النفسي . هناك الخواء والحيرة والقلق والضياغ .  
وسلوى تعرف . وقد خطر لها ان تستعين بزميلتها « عائشة » ..  
ان عائشة تمثل في جو المدرسة التي هي فيها نسمة الرحمة . وعنصر  
الحب .. والرضى .. ان زميلاتها كلهن يجدن عندها الشيء الذي يفقدنه  
كلهن .. الرضى .. وعندما تناب احداهن الحالة التي تحتاج فيها الى  
البسمة المريح . والطمأنينة .. فانها تلجأ الى عائشة . ومع أنهم لا يستجيب  
لتوجيهاتها فيما يختص بالتعامل مع المجتمع في حشمة وفي ترفع وفي تعفف ..  
ولا يصلين .. ولا يستمعن طويلا لتوجيهاتها الدينية ، وهي تحاول أن  
تقودهن الى الله ، حيث تجده هي الطمأنينة والسلام .. والرضى .. مع  
هذا فانها لا تأخر مرة في احتضان قلقهن وأزماتهن وحيرتهن . ولاتنى  
كذلك تراول دعوتها فيهن . كما وجدت الفرصة سانحة . وكانت سلوى  
أكثرهن استجابة .

وأحست ليلي — وهي تستقبل عائشة بزيتها هذا وبجلاحتها هذه —  
بأحاسيس متناقضة ازاءها .. انها لا تستطيع أن تنفر منها ولا أن تكرهها ..  
ولكنها كذلك ليست على استعداد لأن تسمع منها كلمة واحدة عن الدين  
ولا عن الاخلاق ، ولا عن التقاليد ، ولا عن الازياء !  
وحاولت عائشة أن تلمس منفذاً الى قلب ليلي . حاولت في رفق أن

تجد المفتاح المناسب . ولكن حساسية ليلي للموضوع الذي تريد عائشة ان تطرقه كانت حادة . فسرعان ما بدا عليها الضيق والازعاج والازواء . وادركت عائشة ان الامر عسير ، وأن الطريق طويل ، وان الجرح لا يحتمل اللمس . واختصرت الجلسة ، وأنهت الحديث في حنو ظاهروفي بشاشة . واستأذنت للخروج .



وتكررت زيارة عائشة .. وهي تتلمس الطريق الى قلب ليلي .. وما تكاد تخطو فيه خطوة أو خطوتين حتى تصطدم . فتعرف ان الطريق من هنا مغلق ، او يحيطها راد الفعل انتفاضة عصبية فتعرف ان الجرح حساس .. ولكنها لم تئس ابدأ . وبدأ التحفظ والبرود والجفوة التي كانت تجدها عائشة من ليلي في اول الامر تخف .. شيئاً فشيئاً ..

وبدأت ليلي لاتضيق بعائشة حين يأتي موعد الصلاة — وهي في زيارتها — فتنتحي جانباً لتصلي ، وتقرأ آيات القرآن في الصلاة الجهرية بصوت ندي خاشع .. لابل بلغ الامر بليلى ان تقول لصديقتها — فقد أصبحت صديقتها — عقب انتهاءها من الصلاة : « يا بختك بايمانك ورضاك! » ولم تدع عائشة الفرصة تفلت .. لقد احست ان القلب الجاف قد تسرب اليه الندى ، وأن الارض الميتة قد تهتز وتحيا . فقالت لصديقتها « وما الذي يمنعك انت ان تستمتعي بالايمان ، وبالرضى ؟ ان الله لا يرد قاصداً من عباده يلتمس عنده الايمان والرضى . بل ان الله سبحانه —

ليفرح باستقبال الشارد من عباده حين ثوب الى كنفه .. حربي باليلي ،  
انك الآن قريبة من الله ، وان الله يحبك ..

ولكن ليلى انتفضت كما لو كانت لدغتها عقرب .. قالت : لو كان  
الله يحبني حقاً ما صنع بي هذا .. ان الله يكرهني ، واستخرطت  
في البكاء .

وربت عائشة عليها كما لو كانت تربت على طفلة ، وقالت لها : باليلي  
ياحبيتي ، ان الله لا يكره احداً من خلقه . ولكن الخلق هم الذي  
يستعدون عن الله فيحسون هذا الاحساس المدمر ، وسعرت ان الله يحبك ،  
نعم سعرت هذا قريباً .

ورفعت ليلى وجهها والدموع ما زالت في عينيها .. وكأنا تريد  
ان ترى شيئاً مادياً حسيماً يمثل كلمات عائشة ويبرهن على صدقها !  
انها تتكلم بلغة الواثق .. ونظرت الى عيني عائشة ، فلم تجد شيئاً مادياً  
ولكنها وجدت الثقة والاطمئنان والرضى .

★ ★ ★

وفي الزيارة التالية .. كانت ليلى تنتظر عائشة كالطفل الذي  
ينتظر هدية حلوى ، وكأنا تتوقع ان تجيء معها رضى الله وجهه في  
علية ، تقدمها لها كعلبة الحلوى !

ولم يكن مع عائشة إلا قلبها ، وجهها ، وهدوؤها ، وسماحتها ،  
ورضاها ..

ولم يكن هذا كل ما تنتظره ليلى - في سداحة وفي توقع غير  
منطقي - فأحست كما لو كانت حية أمل !

وحين عاودت عائشة الحديث عن « الصلاة » وأثرها في القرب من الله ، وفي رضاء .

وقالت ليلى في شبه بئس : وما فائدة أن أصلي وقلبي ميت لا يستطيع الاتصال بالله ؟

قالت عائشة في ثقة و يقين : ان الحياة ستدب فيه بعد قليل ، وستشعرين بالراحة والطمأنينة بدل هذا الجفاف والضياع .  
قالت ليلى : اني أعرف نفسي ، أنا الآن ميتة ، ولا شيء يمكن ان يعيد الى نفسي الحياة .

قالت عائشة : ان الله قادر على أن يحيي هذا القلب الميت ، انه قادر على كل شيء يا صديقتي فحاولي ، ان البعد عن الله خسارة لا تعوض ، انه الجفاف والموت والضياع .

ولم تجب ليلى ، بل صمتت لحظة ، وتاهت نظراتها في فضاء الحجره .. ثم قبلت يدها وهي تقول :

— وماذا أصنع بثواب الآخرة . وأنا على هذا العذاب في الدنيا ؟

— قالت لها عائشة بعطف : هذه الدنيا ايللي ستمضي سريعاً . حتى ولو بقي هذا العذاب الى النهاية . وهناك سنرى أنها لم إلا سوى ساعة من نهار ، على أن رحمة الله لا تدع عباده يتعذبون اذا هم لم يبتسوا من رحمته .. وقرأت ( ولا تأسوا من روح الله ، انه لا يبئس من روح الله الا القوم الكافرون ) .. واعقبت : ( وإذ أسألك عبادي عني فاني قريب . اجيب دعوة الداع اذا دعان .. )

قالت ليلى - وكأنا تحاول ان تعرض كل متاعها على عائشة في صورة المعارضة لآرائها ، كما تجرد عندها الرد الذي يسمح على هذه المتاعب والذي يكذب شكوكها هي ومخاوفها !

ولكن اليست الصلاة هي التي صنعت بي ما انا فيه ؟ اليست الحشمة والتقاليد هي التي اضاعت مستقبلي وشوھتي وجعلتني ابدو قطعة اثرية قديمة أمام بنات امريكا الراقيات ؟ اليست التقاليد والدين هي سبب شقاء الفتيات والمجتمع كله عندنا ؟

وهنا غلب عليها الانفعال . واخذتها ثورة من الغضب . فقالت .  
وجسمها كله يهتز :

- اني حاققة على كل شيء . لو استطعت ان احطم هذه التقاليد ، وأخرج الى الشارع متبذلة .. لا لأعيش ، فقد فقدت كل أملي في الحياة ، ولكن لأنتقم !

وظل طيف الابتسامة الراضية على وجه عائشة ، وسكنت برهة ريثما تهدأ هذه الثورة التي انطلقت فجأة ، وأخذت بيد ليلى وراحت ترتب عليها بين يديها ، فلما أحست أنها هدأت ، قالت لها - وهي لا تزال مسكة بيدها :

كثيراً - ياليلي - ما تختلط الامور في النفس في حموة الغضب . ولكني احب ان تزن الامور بميزان صحيح . فأنا اربأ بعقلك المستتير ان ينقاد وراء كلام فارغ وتصورات هابطة ، مما يشيعه المنحلون في هذه الأيام .. ان الانسانية شيء والحيوانية شيء آخر .. وبينها مسافات

بعيدة .. فاذا كان الانتكاس الى الحيوانية رقياً وسعادة فبئس الرقي  
وبئست السعادة ! وخير ان يعيش الانسان انساناً كما خلقه الله ، ويحتمل  
بعض المشقة ، على ان يكون حيواناً مستريحاً . على ان السعادة في المجتمع  
الغربي خرافة .. ان هي السعادة والبيوت هناك تنقوض بعنف ، والزوجات  
في هلع دائم من هروب ازواجهن . والاعلانات عن الازواج الهارين  
من زوجاتهم في امريكا كالاعلانات عن الحيوانات الضالة؟ والفتيات يعرضن  
انفسهن عرضاً رخيصاً ، كما لو كن جواري في سوق الرقيق؟! انها  
دعاية من المنحطين الذين يريدون مجتمعاً منحللاً يعيشون فيه كالجوارح .  
لا يمكن — ياليلي — ان يعتمد الناس عن الله ثم يسعدون في حياتهم ،  
او يغمون في آخرتهم .. محال ، محال .

قالت عائشة هذه الكلمات في حرارة وانفعال وايمان وثقة .. ولم  
ترد ليلى بشيء .. واتته الجاسة بعد قليل .. وودعتها عائشة وداعاً حاراً  
فقد كانت تعرف انها ذاهبة مع امها واخيها وسلوى وزوجها الى المصيف .  
بناء على توصية الاطباء كجزء من اتمام العلاج .



لم تندمج ليلى في جو المصيف المطلق من كل قيد ، المختلط اختلاط  
القطيع . كانت تكره ازدحام الشاطئ ، باللحم المكوم على الرمال .  
وكانت تكره النظرات الوقحة والحركات القذرة ، التي هي الطابع العام ..  
كانت تحس ان الناس لم يتجردوا هناك من ملابسهم فقط ، ولكن كذلك  
من انسانيتهم وذوقهم ومن سلامة فطرتهم .

ومن ثم كانت تؤثر في النهار البقاء في داخل « الكاين » حتى كان زوج سلوى يسمي الكاين « بالصومعة » . ويلقبها هي بصاحبة الصومعة وهو يتفكه معها . وكانت تؤثر في الليل الجلوس في الشرفة المطلة على البحر . والاستماع الى صوت الامواج الهادرة الصاخبة . واغراق همومها ومللها في ثناياها ..

وكثيراً ما كان يحظر لها خاطر غريب .. هو المقارنة بين البحر وصيدقتها عائشة .. رغم هدوء عائشة وسمتها الراضية المطمئنة .. ولكن هذا التشابه كان يأتي الى نفسها من العمق ، العمق الذي تملك ان تفرق فيه همومها الصغيرة .



ومضى شهر .. وكان مساء .. وقد نزل الجميع الى المدينة ليحضروا السينما ، وقيت ليلي وحدها مع الخادمة . وجلست في الشرفة كعادتها . وغرقت في تأملاتها ، وبدأت تلاحظ ان شيئاً جديداً قد أخذ يظهر في اعماقها ، ان هنالك شيئاً من البلادة تجاه ماضيها . بدأ يشيع في نفسها ، ان لذع الذكرى قد بات هيناً متباعداً . وتساءلت في عجب : تراني بدأت انسى ؟

وهنا ايقظها من تأملاتها صوت باب الشرفة المواجهة لشرقتهم يفتح .. انها شرفة جيرانهم الجدد الذين جاؤا هذا الاسبوع . وبدأوا تعارفهم بهم ، انهم عائلة صغيرة مكونة من ابوين وابنتها الشاب وصبية يافعة .. يعيشون في جو مترفع ، يختلف عن جو الكثرة من المصيفين .



وحدقت برهة في الحجره التي فتحت شرفتها ، فاذا بداخلها « خالد » ..  
الابن الشاب .. الذي رأته صباح اليوم يجلس هو ووالده مع شقيقها  
وزوج ابنة خالتها سلوى ، تحت مظلتهم .. لقد تبادلت التحية بضع  
مرات هي ووالدها وابنة خالتها مع والدته التي دعتهن لزيارتها ، ولكنهن  
لم يذهبن بعد .. ورأت « خالد » الذي استلقت نظرها جده واتزانه  
وترفع ملاحظه ونظراته .. رأته الليلة يتجه الى القبلة داخل الحجره ..  
ويصلي .. كان يصلي العشاء ، وكان وجهه في مقابلتها بحيث ترى قسامته  
بوضوح ، وهي جالسة في الظلام لا يراها احد .. ووحدت نفسها تحديق  
في الوجه الخاشع الجاد المتجه الى الله . وتنسى كل ما حولها وما يحيط بها ،  
واحست ان في هذا الوجه شيئاً ، جمالا من لون جديد لا تراه ابداً في  
وجوه الشبان الآخرين ، جمالاً لا ينبعث من التقاسيم . بل من الملامح  
الجادة الخاشعة الودود ، ان هذه الملامح تقول : ان لهذا الانسان قصداً  
في الحياة وغاية ، وتصميا على هذا القصد وهذه الغاية . انها غاية « انسان »  
لاشراهة حيوان .

ولم تستطع ان تحول وجهها عن الصورة التي استرعت انتباهها طوال  
فترة الصلاة .. كانت تتأملها وتود لو بقيت أمامها أطول مدة من الزمن ..  
وعندما أنهى صلاته وخرج من الحجره الى داخل الشقة بعد أن أطفأ  
النور . استولى على نفسها شعور غامض لم تبينه . شعور فيه حيرة وشيء  
من الخوف الذي لا تعرف له مصدراً . وما لبثت أن تطلعت الى السماء  
وحدقت في الفضاء هنيهة ، ثم أحست برعشة تسري في بدنها وتهزه .

وترعش قلبها الذي طالت غفوته .. انها مخطئة في حق الله . فمتى تعدل  
عن هذا الخطأ ؟ متى ترجع الى الله ؟

★ ★ ★

وتعددت رؤيتها لخالد مصادفة على الشاطيء في هيئته التي اعتادت  
ان تراه فيها . وتعددت رؤيتها له كذلك وهو يصلي ، وكانت تقصد ان  
تراه في هذه الصورة التي كانت تبدو لها رائعة في خشوعها واستسلامها  
لله ، ذلك الاستسلام الهادئ المريح ، الذي يجيل لها ان وراءه نفسا  
مطمئنة وروحا هادئة . وقلبا راضيا لاشقاء فيه ولا أعاصير .. لقد  
تذكرت عائشة .. وهي تصلي .. تراه طابع الايمان في القلب البشري واحداً ؟  
وانقضى شهر آخر ، أغسطس .. وسافر شقيقها الى القاهرة بعد  
انتهاء اجازته وسافر زوج سلوى .. وسافر كذلك خالد وعائلته .

وبقيت هي والدةها وابنة خالتها لقضاء شهر آخر للاستشفاء ولا كمال  
مدة ايجار الشقة ، بقيت بغير حماسة ، ولكن بغير ضيق كذلك ، وقد  
أحست بالفراغ بعد سفر عائلة خالد التي توطدت الصداقة بينها وبينهم .  
ولكن هذا الشعور بالفراغ عوضه في نفسها هدوء المصيف ، وخلوه  
شيئاً فشيئاً من الجلبة والضجيج والزعاج واللحم المكوم على الرمال !  
وساعدها على هذا البدء في قراءة بعض الكتب التي كانت عائشة  
قد أهدتها لها في الزيارة الاخيرة لتقرأها على مهل في المصيف ، ولم تكن  
بعد قد فتحت منها كتاباً واحداً .

ولم تكن القراءة هي الشيء الوحيد الذي تغير في حياتها ، فلقـد

بدأت تشارك أمها وابنة خالتها في زيارة الاسر الباقية التي عقدت بينها الألفة والصداقة ، كما نشطت لزيارة بعض محال الأقمشة والهدايا لتنتقي لنفسها ما يروق لها من الثياب والحقائب والأحذية ، ولتختار بعض الهدايا لصديقاتها القليلات في القاهرة .

★ ★ ★

ومر الشهر الثالث .. وقبل الليلة الأخيرة على السفر ، زلت والدتها مع سلوى لاستشارة طبية ، وبقيت هي في البيت لتشرف على اعداد حقائب السفر وحين فرغت خرجت الى الشرفة . وجلست هناك تستريح ، وتودع المصيف الذي شعرت بالوحشة لفراقه ، على الرغم من أنها باتت تنتظر العودة الى القاهرة بشيء من الفرحة ، وعلى حافة الشرفة أسندت ذراعها ورأسها ، وأخذت تستمع تارة الى هدير الأمواج التي زادتتها الرياح صخباً وجلبة . وتارة تتطلع الى الأفق والنجوم التي التمتعت في الظلام .. وتارة اخري تتجول بناظريها في افق الضاحية التي هجعت وانكشفت وأظلم الكثير من ارجائها ..

كانت تتطلع الى كل شيء بحس مرهف ومشاعر عميقة ، أخذت توازن في خيالها وحسها بين صورتين المكان ، لا يفصل احدهما عن الاخرى غير ثلاثة أشهر . صورة المصيف عندما جاءت اليه وصورته الآن .. صورتان مختلفتان لنفس المكان . وكأنها عالمان منفصلان .. الحرارة التي تلفح كل شيء فتحيله الى وهج واشراق ، الوجوه النضرة والعيون المتطلعة . والأجسام المثلثة بالحركة والنشاط .. البحر الدافئ

المندفع الأمواج يداعب القوارب السابحة عن فيها ، والرمال الناعمة التي  
يخطف منها الموج حبات ليعيدها في موجة أخرى بعد ثوان .. وفي الليل  
حيث تلقى المصاييح بضوئها على الشاطئ ، من بعيد فتلعب المياه ، وتتلاقى في  
لحمتها الاضواء .. والشارع الكبير الذي يزدحم بالرائحين والغادين  
والجالسين على حافة السور الطويل الممتد الى نهاية الطريق ، والعربات  
التي لا تنقطع لحظة والتي تقطع الطريق بسرعة كالسهام ، متعددة الأشكال  
والاحجام .. جلبة دائمة وضجيج متصل ، لا يخفت ولا يهدأ الا عندما  
يتقدم الليل قرب الصباح .. ثم هذه الشرفات والمنازل .. أين أنوارها  
المتلألئة التي تلتقي بأضواء المصاييح على جانبي الطريق ولافتات الاعلانات  
المضاء ، فتبدو المدينة وكأنها شعلة مضاء متصلة الانوار .. ثم الوجوه  
الضاحكة ، والأصوات في كل شرفة وكل بيت . ووراء كل ستر وكل  
جدار ؟ حياة متوثبة وآمال مشرقة وآمان وأحلام .. ثلاثة أشهر  
الفاصل بين تلك الحياة المشرقة وهذا الافقار الذي تبدو كآبته في كل  
جانب وفي كل مكان .. في الشارع الكبير الذي خلا من المارة ومن  
الجالسين — الا قليلاً — والذي لم تعد العربات تقطعه الا بين الحين والحين  
ثم يسود السكون وتلاشى الأصوات ، اللهم إلا صوت البحر الذي يبدو  
ثأراً مزججاً .. وهذه المنازل . ان جدرانها تبدو كأنها انكشفت ،  
ونقصت من أطرافها ، وضاعت بعد أن أغلقت شرفاتها ونوافذها ،  
وانطلقت أنوارها ولآلئها ، فما عاد يبرق من داخلها نور ، أو ينبعث من  
بين جدرانها صوت ، أو تعلو في جنباتها ضحكة ، أو رنة فرح مشرق

حي .. كل شيء صامت بكسوه الظلام ، ويجيم عليه شبح الموت أوشبح  
الفناء .. أين جيرانهم أهل « خالد » ؟ . والآخرون الذين تطل عليهم  
شرفة مطبخهم ؟ أولئك الذين كانوا يجلسون في الشرفة الواسعة ، ويتناولون  
العشاء في ضجة مابعدھا ضجة تختلط أصواتهم رجالا ونساء وأطفالا ،  
حتى مقاعدھم كانت تشارك بأصواتھا في الجلبة والضجيج عندما كانوا يسحبونها  
في غير تودة ولا نظام ! لكم كانوا يضيقونبھم وبصوت مذبذبھم العالی حتى  
منتصف اللیل .. أي فراغ وأي صمت يجثم على مكانھم في الشرفة الخالية المغلقة؟!  
بالحياة الزائلة ! وبالاحياء الغافلين ! ماأسرع ماتمضي الاشياء ، فلايبقى منهاغير  
الصدى والذكرى ! الناس والایام . وكل شيء ، اللیالی المظلمة والایالی السعيدة ..  
كلھا تتساوى عندما تمضي .. وتدفن في المجهول . ذلك الجب السحیق  
الذي لاقرار له ولا معالم ولاسمات .

وأحست بالضیاع والتبدد . وبدالھا أنها تعيش في حلم ، في وهم . كل  
مامرھا وماسیمر . وملاّت نفسها رهبة ، وهي تغلب عینھا في الخواء من  
حولھا .. ثم اندفعت تحددق في السماء وتنقل بصرھا بین أشعة النجوم  
التي تترقق في الظلام ، وتعمد ألوانھا في ارتعاشات دائمة ، واهتزازات  
متلاحقة . وین الفضاء اللانھائی الذي یحیط بكل شيء . ثم تصیخ بسمعھا  
الی الامواج الهادرة المزججة بلا توقف أو كلال . ثم تنقل بصرھا مرة  
أخری في الظلام ، الظلام الذي یلتي رداه على كل شيء .. على الجدران ،  
وعلى الأزقة والطرق الواسعة سواء بسواء .. هذا الظلام الذي لا یقدر  
أحد على نزع رداه من فوق الارض . من فوق المساحة الهائلة التي یغمرھا

هذا الظلام .. كل ما يستطيعه البشر هو أن يضيئوا بعض البقع ، فتبدو أشبه بالبقع البيضاء الصغيرة في الرداء الاسود المتسع الارجاء . وحين تمحو القدرة الالهية هذا الظلام ويشرق الصباح ، فإن أحداً لا يستطيع أن يحجب الضياء ، أو ينتزعه من فوق الاشياء .. كل الاشياء .. آيات من آيات القدرة الخالقة المهيمنة .. القدرة التي غفلت عنها حيناً ، وضلت الطريق اليها ، وخيل لها أنها لا تقدر ان تغير من نفسها ولا من حياتها شيئاً ..

واسبلت عينها في خشوع واستسلام . وهتفت من أعماقها — وقد سرت في عروقها رعشة : يارب . هل تقبلي في رحمتك ؟ وأحنت رأسها خجلاً وخشية ، حتى لامس وجهها حافة الشرفة . وقد بلت عينها الدموع .

وكادت تغفو في جلستها لولا أن ايقظها بوق السيارة وهي تقف بوالدتها وابنة خالتها أمام الباب ..

★ ★ ★

وقالت لسوى قبل أن تغلق باب حجرتها عند النوم . وفي صوتها ارتعاشة تحاول اخفاءها :

سوى . أيقظيني في الفجر لأصلي معك ..

ودهشت سوى . وسألتها : أوحقاً ماتقولين ؟ ماذا حدث ؟

قالت وهي تبتم . وفي كيانها ارتجافة تهز كيانها كله : لم يحدث شيء عدت الى الله ..

وابتسمت سلوى في اشراق وهي تقول :  
— لو عرفت عائشة لسجدت لله شكراً . لقد كانت تنتظر ذلك اليوم  
وكانت واثقة أنه سيجيء .

ومضت هي الى حجرتها وفي نفسها ما يشبه الدوار ، لا تكاد تتبين  
أو تضبط مشاعرها ولا اختلاجات نفسها المشتتة . غير أن أمنية كانت  
تبدو واضحة ثابتة في وسط هذه الاختلاجات وكأنما قد نضجت  
وانبعثت فجأة .. ليت الله يجمعها مع ذلك الانسان الصالح : « خالد » في  
حياة هادئة مستقيمة . لا تنزهاز لا زل الضلال . ولا يقوض بنيانها اعصار ..



## مولد قلب

أمسكت بالرسالة وقلبتها في يدها بانتباه . وما أن وقع نظرها على الخط فوق غلافها حتى تملكها العجب وتساءلت باستنراب : أراها من (سناء) ؟ هذا غير معقول .. فقد مضى عام وبضعة أشهر على القطيعة بينها ومن غير المعقول أن تكتب لها مرة أخرى .. أسرع تقض الرسالة بشغف وتقرأ سطورها بامعان . وما أن انتهت من قراءتها حتى أخفت عينها بيدها لحظة وبدت كمن يحلم ، وقد علت وجهها ابتسامة خاشعة وبللت أهدابها الدموع .. ومضت برهة وهي في هذه الصلاة الصامتة ثم ما لبثت أن انتفضت من مكانها في فرح غامر لتحدث اخوتها عن محتوى الرسالة ، وكأنما تلقي اليهم بخبير غير معهود .. إنها رسالة من سناء صديقتها العزيزة التي قاطعتها منذ أكثر من عام . على أثر خلاف بينها تعددت صورته ومناحيه ، ولم يعد هناك مفر من تلك الناحية التي استطاعت أن تغلب على الصداقة العميقة وتدفعها تحت الركام .. هاهي ذي تكتب إليها اليوم لتحدثها بأسباب عن تطورات نفسها وأحاسيسها في الفترة التي سادت فيها القطيعة بينها ، وتلتقي معها مرة أخرى على غير موعد وعلى غير انتظار ..

★ ★ ★



انها تذكر ذلك اليوم كما لو كان بالامس القريب رغم أنه قدمضت عليه ثماني سنوات أو أكثر قليلا. يوم دق جرس (التلفون) وطلبت المتحدثة أن تكلمها — فذهبت ترد. وكانت المتحدثة فتاة غربية اللهجة والحديث .. وقالت لها تعرفها بنفسها : ( لعلك لا تتوقعين أن أتحدث اليك من هنا — من القاهرة — لقد جئت منذ أيام قصيرة ، وقد أردت أن أتعرف بصاحبة الخواطر المبدعة التي اقرؤها في الصحف . ألا تعرفيني؟ أنا سناء ) .. وما ان سمعت الاسم حتى امتلأ صوتها فرحاً وأخذت ترحب وتعجب من هذه المصادفة التي لم تكن تخطر لها على بال .. وفي النهاية كانت قد اتفقت مع سناء على اللقاء في الغد ، في البيت في الساعة السادسة مساء .. ووضعت الساعة وفي رأسها ما يشبه الدوار لهذه اللقيا العجيبة غير المنتظرة .. انها تعرف ( سناء ) منذ ان قرأت ديوانها الأول وسجرت بشعرها الجميل . ولم تكن تعرف ان سناء تعرفها هي الاخرى وأنها تقرأ خواطرها التي تنشرها في بعض المجلات الأدبية بين حين وآخر . كانت كل منهما تعرف الاخرى وان لم تلتقيا بعد . فمنذ أن قرأت هي ديوان سناء وأعجبت بقصائدها ذلك الاعجاب الكبير ، وهي تمنى أن تلتقي بها ، وان تتوطد بينها الصداقة والمعرفة ، وكذلك كانت صديقتها وجارتها الفنانة ( احسان ) اذ كانت هي الاخرى قد قرأت شعر سناء ورأت فيه شعراً حياً نابضاً مليئاً بالصور والمشاعر المرفرفة الشفافة العميقة .. وقد فكرتاها الاثنتان ان تكتبيا الى سناء وتعرفا اليها مادامت أفكارهما قد التقت معها ، واتحدت مشاعرهن على البعد . وقبل أن تنفذا ما اعترمتا

عليه جاءت هذه المصادفة العجيبة التي ستجمع بينهما بغير مشقة ولا عناء .  
لقد أخذت تفكر في هذا اللقاء وترتب صورته وكأنا تعيش في حلم من  
الاحلام . انها تحب سناء على البعد . وقد ازدادت لها حباً عندما سمعت  
صوتها الحالم الرقيق الذي ينبئ عن شاعر يتهاورقة مشاعرها .. واخذت  
ترتب هي واحسان طريقة اللقاء وكيف سيكون ، وأضفتا عليه من  
خيالهما صوراً حادة مشرقة ، لقد كاتنا كلناهما في مستقبل الشباب لم تتصل  
نفسهما التجارب بعد ، ولم تجمد مشاعرهما أحداث السنين . كان كل شيء  
بهيجاً حالمًا في خيالهما كأيام الربيع الندية . وكان هذا اللقاء يمثل في  
خيالهما حلماً ساحراً ، وهكذا بغير بواعث ولا أسباب اللهم الا لقاء  
المشاعر من وراء الأبعاد .

وجاء الغد الموعود . جاء وكانت قد أعدت له نفسها ، وأعدت له  
المكان اللائق بشاعرية حاملة ، لقد رتبت الأمر على أن يكون اللقاء أولاً  
في ( الصالون ) ثم الانتقال بعد ذلك الى الحديقة الهادئة التي تضيئ عليها  
الاشجار الوارفة جواً شاعرياً كأجواء الاساطير ... وتم اللقاء الحار  
الذي لم يكن يتصور من يراه أنه أول لقاء . وفي الحديقة جلسنا في شبه  
دائرة ، وقد وضعت في الوسط مائدة صغيرة صفت فوقها أواني الشاي  
وأطباق الفطائر . بينما انبعث من وسط كرم العنب الممتد الى آخر الحديقة  
نور مصباح كهربائي قوي وانبعث من الجانب الآخر نور مصباح آخر  
من فوق كشك صغير ، أما القمر فكان يتسلل في ببطء من الجانب الشرقي  
ويطل من خلف الجدار العالي رويداً رويداً ، ويزحم بتوره المفضض

نور المصباح ويحيله الى ميوعة ، ويذيب من خيوطه اللعان .. وكان  
الجمع يتكون منها هي واحسان والشاعرة الضيفة ، وبعض أقاربها وأهلها  
الذين يتذوقون الأدب أو يكتبون الشعر . ولقد شاركت هي الجمع في  
تناول الشاي والحديث . ولكنها كانت تحلم أكثر مما تعيش في الواقع .  
ولاسيما عندما انتهى تناول الشاي وتطلعت سناء الى ناحية القمر واقترحت  
في رقة الشاعرة أن تطفأ المصابيح ، وأن يترك النور الشعري وحده  
في المكان . ونفذ الاقتراح وبدا المكان حالمًا ساحرًا أخذًا . كانت  
الكلمات والاصوات هادئة عميقة النبرات وهي تتجاذب الأحاديث حول  
الشعر والأدب في أنحاء العالم العربي ، وكان بعضها يبدو كهمسات الحلم  
وهو يردد أبيات قصيدة للشابي أو أحد شعراء الشباب النابغين . وبدت  
صورة الحلم واضحة حين أخذت سناء تهمس بأبيات جديدة نظمها حديثًا . كان  
القمر قد اختبأ خلف أغصان إحدى الشجرات العالية وأخذت أشعته  
الفضية تنبعث من خلال الأوراق الصغيرة والأغصان وتخللها ، وتلقي  
بالظلال على الأرض مرتعشة متغيرة الاشكال والاحجام . مما اكمل  
موسيقى الشعر ومعانيه ، وصورة الحلم وجوه المسحور ، وصمتت هي  
وأخذت تتأمل وفي نفسها اشفاق من انتهاء الحلم وتبدد ثوابه . كانت  
تستعيده ذكرى ولما ينته بعد ؟ كانت تتابع كل لحظة وهي تتسرب الى  
الماضي وتشيعها بأسى عميق . لقد كانت اللحظات تمثل حلمًا من أحلامها  
وأمنية من أمنيتها — وكانت دائماً تحلم وتتمنى ، ولا تعيش في الواقع  
الا عندما تصطدم أقدامها بالأرض وتصدمها الحقائق ..

وعندما انتهت الجلسة وانسربت اللاحظات كلها في بطن الماضي الذي  
يبتلع كل شيء وكل حي على الأرض . وهمت سناء بمفادرة المكان ،  
أمسكت بيدها وهي تقول : « لقد انتهى الحلم يا سناء متى يعاد ؟ » فابتسمت  
وقالت لها في لطف : « انك حاملة اكثر مما يحتمل الواقع ، ثم تواعدنا  
على اللقاء مرة اخرى في نفس المكان قبل أن تسافر ..

ومضت ثلاثة أيام وهي تعيش في صور الحلم الذي صار ماضياً وذكري  
وتنتظر الحلم الذي سيجيء .. وجاءت الليلة الثانية ، ولكن بصورة  
اخرى متغيرة . فقد تخللها عشاء وحديث متفرق عن شئون العرب ، ثم  
موسيقى لبعض كبار الموسيقين العالمين .. ولكنها مرت كما مرت  
الأولى وأضحت ذكري ، وغلفها الماضي بسحره ورؤاه .



وتبادلنا الرسائل بعد ذلك وتبادلنا المودة والصدقة ، كما تبادلنا  
الآراء حول ما يكتب في الصحف وما تصدره المطابع من كتب ودواوين .  
وشاركت كل منها الأخرى في أحداث حياتها ومشاكلها . وكذلك  
بادلنا احسان نفس المودة والصدقة وأهدت اليها بعض لوحاتها للذكري .  
وحين توفيت والده سناء عاشت هي معها بقلها ومشاعرها ، وبكت  
لرسائلها الحزينة وقصائدها المتألّمة ، وراحت تحاول مواساتها بكل  
ما تملك من مشاعرها وأحاسيسها ، حتى مرت الايام وانطفأ الحزن واللهفة .  
ولقد ظللتا على وفاق تام حول كل القضايا الادبية والاجتماعية  
والوطنية ، الى ان بدأت هي تسير في طريق جديد وترنو الى قيم اخرى

غير قيم الارض، قيم قد جفاها أصحابها وشردوا عنها فراحوا يستجدون  
القيم الباطلة من كل مكان ويتشبهون بأصحابها ويتمسحون بهم كعبيد  
أذلاء .. ذلك الطريق وتلك القيم هو طريق الله والقيم المستمدة من  
كتابه ومن سنة رسوله . لقد بدأ الاختلاف منذ بدأت سير في هذا  
الطريق الجديد . بدأ هيناً يسيراً ، ثم أخذ يزداد ويتشعب . لقد بدأت  
نظرتها هي تتغير نحو المجتمع وقيمه وموازينه واهدافه التي يلهث لبلوغها  
ويتقاتل من أجلها ، وراح الخلاف يزداد شيئاً فشيئاً . بدأت كل منها  
ترى في آراء الاخرى ووجهة نظرها اشياء لا تستطيع ان تهضمها على  
الرغم من أنها قد حرصت هي من جانبها على عدم التعرض لآراء صديقتها  
بالنقد أو المؤاخذة . كانت تصمت أحياناً وكانت تلمس الاشياء برفق في  
أحيان أخر ، ولكن الميزان كان مختلفاً ولا سبيل الى توحيدده . وبدأ  
خلافها ، بشدة أولاً حول بعض الكتاب الذين كانت هي تعجب بهم من  
قول وآرائهم وأدبهم . لقد عدت ترى فيهم عبيداً أو مستعبدين للغرب .  
الهابط .. مستعبدين لمقاييسه ومبادئه ومثله . رغم أنهم يدعون أو  
يعتقدون أنهم قد تحرروا من ربقته . أما سناء فكانت نظرتها لهم ما تزال  
كما هي لم تتغير . فهم ادباء الطليعة المتحررة الواثقة بالمستقبل ، العاملة له في  
اخلاص .. بدأ الخلاف عندما سألتها سناء عن رأيها في قصة طويلة  
لأحدم — قصة كان يسير فيها على هدى استاذله من الوجوديين قصة  
يدعو فيها الفتاة العربية لأن تحلج عنها كل قيم الشرق المسلم ومقاييسه  
لتكون مثل الفتاة الفرنسية ، بلا اخلاق ولا دين ولا حياء ، لتكون

( متحررة طليقة لا تكبلها القيود ولا تنوقها عن تحقيق وجودها وحياتها؛ )  
ولم تستطع ان تكتم رأيها في هذا الكتاب أو تواريه . فحدثها عن قيمته  
الحقيقية وعن الأسباب التي أوجدت مثل هذا الكاتب الذي يمثل الطليعة  
المستعبدة، التي اخرجت كما أراد لها الاستعمار أن تكون . قالت لها : ان  
الاستعمار الذي قهر في الحروب الصليبية وأدمى قلبه أن تكون للاسلام  
مثل تلك القوة التي تصنع المعجزات — لم ير وسيلة يقهر بها المسلمين  
ويعظمهم ، الا ان يعمل بكل ما أوتي من قوة وحيلة لاجراج أولئك المسلمين  
من دينهم شيئاً فشيئاً ، لا بالحرب ولكن بطرح قيم هذا الدين وأحكامه  
وموازينه . ووضع قيم الغرب ومبادئه بدلا منها . وقد راح يعمل في اناة  
وصبر لاجراج أجيال مستعبدة الأرواح والقلوب حتى أفلح أخيراً في  
مهمته ، وخرج ذلك الكاتب وأمثاله من بين تلك الأجيال ، يمثل ذلك  
المسخ الذي أراده المستعمرون للمسلمين ، قالت لها هذا فردت عليها  
ثائرة غابرة واتهمتها بأنها ظالمة في حكمها هذا . وأنها لاتستند الى حقيقة  
واضحة وأن أحداً لا يشك في اخلاص اولئك الكتاب للقضايا العربية ..  
ولم تر هي فائدة من الجدل في أمر لا يمكن الوصول اليه الا بنظرة اسلامية  
وحس اسلامي . وسناء لم تهتد بعد الى ذلك النور الذي يكشف كل  
شيء ويهدي الى الحقيقة .. وحاولت أن تحسم الخلاف وتلطف من كلماتها  
حتى لاتقع الفرقة بينها والقطيعة ..  
ومرت الأزمنة بسلا م وان كانت قد خلفت شيئاً من البرود الذي  
كانت تحسه من خلال السطور .. ثم تلتها بعد ذلك ازمان . كانت تحف  
وتشتد حسب الاسباب والملابسات .

ففي إحدى رسائلها إلى سناء ذكرت لها في معرض الحديث أنها تجد  
متعة عجيبة في الصلاة في ضوء القمر . وفي الفجر والناس نيام . وردت  
عليها بقولها ؟ « يا صديقي لا تضيعي وقتك في الصلاة الكثيرة ، وحاولي  
أن تقومي بأعمال نافعة بدلاً من ذلك ! » لقد دهشت لهذا القول وعجبت  
واغتمت ، أن تقول هذا الكلام فتاة مسلمة يقول نبيها : « بيننا وبين  
الكفر الصلاة » . غير أنها آثرت ألا تعكر صفحة صداقتها مرة أخرى  
بمناقشة حول هذا الأمر ، وآثرت ان تسير هي في طريقها وتدع  
لصديقتها أن ترى وتعتقد ما تشاء ، فأغفلت الحديث عن العبادات وما يتصل  
بها من قريب أو بعيد . غير أنها كانت لا تفتأ تشعر بالحرج وهي تحدثها في  
رسائلها عن القضايا المتعددة التي يرجع الحكم فيها إلى ميزان كل منها  
ونظرتها وقيمها التي تستند إليها . وكان من بين هذه القضايا قضية الوطن  
العربي والعاملين من أجله . كانت كل منها ترى الأشياء والأشخاص  
بميزانها ومقاييسها وكان من المحال أن تلتقي النظرة حول هذه الأمور  
فما تراه هي تافهاً ثانوياً تراه سناء كبيراً ضخماً . ومن تراه سناء عاملاً  
مخلصاً مضحياً تراه هي دجالاً متهرباً صغيراً الأهداف . وهكذا راحت  
النظرتان تصطدمان رغم هدوء الكلمات التي كانت كل منها تحرص على  
أن تكون لينة هادئة .

إلى أن كانت تلك الدورة من دورات مؤتمر الأدباء الذي عقد  
أخيراً . وكانت سناء ضمن وفد بلادها في هذا المؤتمر .. كان من الطبيعي  
أن تلتقيا بعد تلك الغيبة الطويلة وأن تدعوها هي للجيء إلى البيت .

وجاءت . وكان بصحبته شقيقها — وكان من بين اعضاء المؤتمر — وفي  
الحديقة جلسوا سناء وشقيقها ، وهي وأخوها واحسان ، وقد أصبحت  
زوجته وكانا على وشك السفر الى بلد سناء متديين للتدريس هناك .  
وجلسوا يتحدثون عن مختلف القضايا . وما لبثت وجهات النظر ان  
اختلفت حول الاشياء والاشخاص .. ولكنها حاولت هي وشقيقها  
وزوجته أن يشيعوا في جو الجلسة لونا من المودة والصدقة البعيدة عن  
الخلاقات . فتحدثت هي الى سناء بخصوص قصيدتها التي نشرت أخيراً والتي  
تبحث فيها عن ملجأ يتقدها من الفراغ والته الذي تعيش فيه — وقالت  
لها مازحة : « لو سرت في الطريق الذي أسير فيه لما عانيت يا صديقتي من  
الته والفراغ » وسألها : أي طريق ذلك ؟ قالت لها بوثوق « طريق الله .  
ان الانسان لا يضل فيه أبداً » وضحكت سناء ثم أخذت تناقشها فيما  
قالت .. ولشدها كانت دهشتها حين وجدت سناء تكفر بالبعث وبالرسالات  
كلها ! ولم تستطع أن تخفي عجبها من أن يستطيع انسان ما ان يقطع الحياة  
بالأما ومتاعها وفي نفسه هذا الشعور . وقالت معقبه : ( لقد كانت  
أكبر رحمة من الله بالنسبة للانسان هي توكيده له بأنه سيبعث بعد  
الموت حياً . ولتكن تلك الحياة على أية صورة ، ولكنها حياة بعد العدم .  
ويخيل الي انه لو لم يقل الله للناس ذلك لتخلوه هم واعتقدوه ، والا  
فكيف يمكن أن يقطعوا الحياة بما فيها من آلام وحرمانات ، وهي ذاهبة  
ولن تعاد أو تبعث ؟ وكيف كان يمكن الصبر على فقد الاحياء واحداً  
اثر واحد اذا لم يكن هناك بعث ولقاء ؟ وكيف بصبر الاخيار الذين



يلاقون الاذى والنصب في كفاحهم للشروء والطغيان العاتي في الارض  
 اذا لم يكن هناك جزاء عدل من الله ؟ ان الحياة تصبح كارثة على أي  
 حي لو لم يكن هناك بعث وجزاء — فما هي هذه السنوات التي يعيشها  
 الانسان على الارض ؟ وما قيمتها اذا كانت هي كل الحياة ؟ .. « وكأنا  
 استقرت في حس الشاعرة معاني هذه الكلمات فصمتت لحظة ثم قالت :  
 ( اني اتمنى أن اعيش بمثل هذا الشعور . فشعوري بالموت وبالفقدان  
 يعذبني ، ولاسيما منذ أن رحلت أُمي ، اني أريد ان القاها ، ان ارى  
 وجهها مرة اخرى ، أن أشعر أنني معها ولو بعد عدد لا يحصى من السنين  
 كم أتمنى هذا. ولكن هيات ! ) وبدت في وجهها لهفة عميقة ، وبدت  
 وكأنها تغالب دموعاً تريد أن تنبعث .. وقالت لها هي وفي نفسها حب  
 واشفاق : ( ليس هناك من سبيل يا صديقتي للاطمئنان والراحة بعد فقد  
 الاعزاء الا أن تؤمن بأن الله قادر على أن يجيي الموتى وأنه على كل شيء  
 قدير ) . ولم تجب سناء بل ظلت صامتة لحظة وقد بدا في ملاحظتها التفكير ..  
 وعندما حان موعد انصرافها ، قالت وهي تشير الى زيتها الاسلامي  
 ( ما معنى هذا ؟ لماذا تتحملين أن ترتدي هذا الزي الذي يخنق الانفاس ؟ )  
 فردت عليها وهي تبسم : ( لأن الله قال لي ارتديه ، وهو أعلم بما يصلح  
 للناس وما لا يصلح ) فابتسمت سناء في سخرية وقالت : ( ولكنني كنت  
 أحب أن أراك على طبيعتك كالمرءة السابقة ) فأجابتها وقد حاولت ان  
 تكون لطيفة معها ( مادام هناك رجل غريب فلا بد من ارتداء هذا الزي  
 وأنا مستريحة فيه لا أشعر بأي ضيق مادمت أحس أنني ارضي الله

ولا أخالفه ) فابتسمت وهزت رأسها وكل ملاحباً تنطق بالسخرية من هذا الاعتقاد .. ومضت وتركتها في دوامة من المشاعر : شعور بالسخرية من ان يصل الضلال بالنفوس الى هذا الحد . وشعور بالاستياء من سخرية سناء . وشعور بالفجعية وبالفتقدان . انها لم تكن تتصور رغم الخلافات الكثيرة ان صديقتها على هذه الصورة من البعد عن الله . وعجبت ان توجد تلك المشاعر الرقيقة في تلك النفس البعيدة عن الله . ان هذا ليتفانى مع كل شاعريتها التي تنبعث في قصائدها وتنبجس في كلماتها وموسيقى الفاظها الساحرة . وعرفت حينئذ لماذا تختلف نظرتها الى الاحداث والاشخاص ، والى القيم والمعايير .. ان قلباً لا يعرف الله ، ولا يرجو لقاءه ، ولا يؤمن بالآخرة ، ولا يقيم موازينه على جزاء الله هناك .. يستحيل ان تعادل موازينه ، كما يستحيل أن يلتقى في شيء من أحكامه مع قلب يغمره الايمان .. وينفسح مجال نظراته فيشمل دار الفناء ودار البقاء ..

وفي وسط هذا التعجب من هذا التناقض وجدت نفسها تتوجه الى الله بدعاء حار ارتعش له قلبها وامتلأت به مشاعر ها ، هو : أن يبعث الله بنوره في ذلك القلب المظلم فيرشده ويهتدي .. طلبتها من الله خالصة لينقذ ذلك القلب الخير من التيه والضلال ..



ومضت بضعة أشهر تباعدت فيها الرسائل بينها ، وقد أحست من خلال السطور في رسائل سناء ان نفسها قد انكسرت عنها ولم تعد فيها تلك

المودة السابقة . وأحست هي أيضاً بالفتور تجاهها . إذ كان عمق العقيدة قد وصل في نفسها الى الحد الذي تفتقر فيه أية صلة إذا لم تتصل بالله بسبب من الاسباب .. لقد كان سحر الماضي فقط هو الذي يصل الخيط الدقيق الذي مازال يمسك بهذه الصداقة .

الى أن كان ذلك اليوم الذي وصلتها فيه رسالة من سناء ، على أثر عدوان يهودي على قطاع عربي من القطاعات . وكانت تعرف رأيها من قبل في هذه القضية الدامية عندما التقتا . فقد قالت لها يوماً في اثناء المناقشة : ( لقد خسرتنا فلسطين لاعن قلة في جيوشنا كما تعرفين . ولكن لهزيمة ارواحنا . وقد هزمت ارواحنا طوائها من العقيدة التي نستعلي بها على قوى الارض جميعاً . ولن نستطيع استرداد فلسطين الا عندما يمس الاسلام بسحره قلوبنا فتتفض وتفض العار والخزي الذي لحقنا ) كانت سناء تعرف رأيها هذا ولذا فقد كانت رسالتها تمتلئ بالتجدي والسخرية بهذا الرأي وبكل ما يجعل الدين اساساً للتفكير والتصرف في الامور ، لقد دهشت ولم تستطع ان تعلق هذا التصرف من سناء وبدا لها ان تسكت فلا تكتب ولا ترد . ولكنها عادت فرأت ان الامر لم يعد أمر شخصياً أو رأيها هي ؛ بل لقدغدا أمر عقيدةتهاجم ويهاجم كل ماتوحي به هذه العقيدة من تصورات وافكار .. وبجراحة دفاع أي مؤمن عن عقيدته اخذت هي تهاجم سناء وتسخر من تصوراتها الجاهلية ، أو التي دس فيها الاستعمار كل ما كان يريد أن يدسه في نفوس المستعمرين من تصورات وافكار .. وبهاتين الرسالتين انقطع الخيط الذي كان باقياً وبدأت القطيعة التي كانت هي تحاول ، رغم الخلاف الجوهرى الاتكون.

\* \* \*

وأحست بعد ذلك بفراغ كبير يملأ نفسها . وأخذت تعاود التفكير في موقفها : هل كان خاطئاً أم مصيباً . كانت تحس بأنها أخطأت في هجومها على صديقتها وانه كان يجب عليها بصفقتها مسامة تحاول ان تصل في ايمانها الى درجات عليا . كان يجب ان تعاملها باللين والحسنى وتذكر موقف النبي ﷺ من قومه المعتدين الذين كان يدعو لهم بقوله « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » ثم تعود الى رسالة سناء وما فيها من استفزاز فترى ان موقفها لم يكن خاطئاً ..

انقطعت الرسائل بينها وساد الجفاء . ولكن صور الماضي راحت تترأى لها بين وقت وآخر فتمتلئ نفسها بالاسف والاسى لما حدث . كانت صورة اللقاء الاول وما احاط به من سحر ورؤى — والكلمات التي قيلت والالفاظ التي ترددت تتوالى على ذهنها ويمتلئ بها خيالها فتحاول الهروب منها باستعادة كلمات الرسالة الاخيرة .. ولم تستطع ان تمزق الرسائل التي تبادلتها طوال السنوات التي انقضت على صداقتها ، رغم انها قد همت بذلك مرات .. كان كل شيء يوحي بأن هذه الصداقة لن تعود مرة ثانية ولن تبعث فيها الحياة . ولكن امنية واحدة لم تتغير في نفسها ولم تفارقها الحرارة التي صاحبته ، وهي ان يمن الله على قلب سناء بالايان . فقد كانت تحس ان هذا هو الخيط السحري الذي سيصل ما انقطع بين القلبين .. وكانت نفسها تظلم عندما تسخر من امنيتها البعيدة التحقيق . غير انها كانت تعود فترى ان الله قادر على كل شيء وانه واسع الرحمة والمغفرة .

\*\*\*

ومر عم . وكانت احسان هناك في بلد سناء لم تنته بعد مدة انتدابها  
وكانت تعمل في احدى المناطق التي تبعد عن العاصمة بعدة اميال وكانت  
تلقي بسناء بين الحين والحين . وفي رسالة منها الى زوجة اخيها سألتها  
عن سناء وطلبت منها ان تحدثها عن أحوالها دون ان تخبرها بذلك . فهي  
ما تزال تحب ان تعرف عنها كل شيء رغم ما بينها من خصام .. وبلغتها  
احسان بعد ذلك بأنها قد بعثت برسالتها الى سناء لأنها لا تريد ان تبقى  
هذه القطيعة بينها ، وانها ستعمل على انهاءها بكل وسيلة . وردت على  
احسان غاضبة تلومها على هذا التصرف الذي لم تأخذ رأيها فيه والذي  
لا توافق عليه ... وعلى حين فجأة وصلتها هذه الرسالة من سناء وكانت  
تحمّل في طياتها أعجب انقلاب يحدث في نفس انسان . لقد آمنت سناء  
بالله .. بكتبه ورساله وانبيائه .. آمنت بعد كفر والحاد عنيدين . بعد  
سنوات في ظلام مهلك وتيه بعيد . آمنت بعد رؤيا من الرؤى جعلت  
قلبا ينتفض وينكر كل ما مر به من ضلال .

وقد راحت تشرح لها كيف انتفض قلبها ، واستيقظ فيه الايمان :  
« اعجبي ما شاء لك العجب ، وانت تلقيين هذا الخبر . ولكنها  
رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ونعمته التي أحسها الآن بعمق ،  
وامسجد له شكراً ، وأعجب كيف مرت علي تلك السنوات الطويلة  
وأنا بعيدة عن هذا النور ، وهذا الاطمئنان ، وهذه الراحة العميقة ؟  
كيف احتملت نفسي ذلك التيه وعاشت في ذلك الظلام . تتحطم اهدافها  
الصغيرة هدفاً في اثر هدف ، وتعود حائرة ضالة ، تفتقد الامن والسلام

والاطمئنان . حتى أراد الله ان ينتشلها بحادثة صغيرة ، بكلمات طالما قرأت مثلها وسمعتها من بعض الناس فلم تهز لي قلبا ، ولم تحرك في نفسي شعوراً ... هل تدرين ما هي هذه الرؤيا وما هي تلك الكلمات ؟ وقبل أن أقولها لك أعود الى ذلك اليوم الذي التقينا فيه ، وإلى بعض الكلمات التي تبادلناها .. هل تذكرين حديثنا عن البعث بعد الموت ، ذلك الحديث الذي سخرت منه يوماً وهزئت في نفسي من اعتقادك الذي دافعت عنه بتلك الحرارة والثقة ؟ لقد عجبت يوماً لثقتك فيما تقولين . ولكي رحبت بعدها افكر وأنساءل : لماذا لا تكون على حق ؟ ما الذي يمنع ؟ ثم لا البت ان اقول ساخرة : وما الدليل المادي على ذلك ؟ هل جاء أحد من الاموات يحدثنا عن الجزاء والعقاب ، او ينبئنا بأن الحياة قد عادت اليه ؟ انه وهم ينبغي الا يصدقه عقل نيرواع .. ولكن تفكيري راح يصل بين كل مآراء عيناوي من بدائع الكون واسراره وبين ذلك الوهم او تلك القدرة التي يمكن ان تبعث الحياة في الرفات المتحلل فيعود انسانا كما كان ؟ كنت استيقظ في الصباح قبل الشروق وأقف في شرفة بيتنا أتأمل الشمس وهي تبرز من خلف الافق رويداً رويداً ، وتوقظ الكون النائم وتبعث اليه بالنور والحرارة . فاذا الحياة تدب في كل شيء وتطلق للعمل والنماء . الطيور تغادر الاعشاش باحثه عن الحب والماء لها ولصغارها . النخيل يصحو ويتصب سعه النائم المستسلم . الزهور المغمضة المنكشة تتحرك وتفتح في بطاء ، لازاه وهو أمامنا ، ولانستطيع ان نلمسه بحواسنا المادية . كل شيء ينمو ويتحرك ويندفع للحياة ... ثم

أقف في الغروب لأرى صورة أخرى : صورة النبات والطيور والحيوان ، وكل ما على الأرض ومن عليها ، والظلام يغشاهم ويغشيها في ديب خفي حيث ، فاذا السكون والوحشة والرهبنة . واذا النوم والاستسلام يداعب العيون ، حتى النبات يستسلم ويهجع كما نستسلم نحن للرقاد .. آية أخرى كما يقول المؤمنون ويعبرون : . وفي مرات أخرى كنت أتطلع الى النجوم والى القمر والى السماء الواسعة التي يضل فيها البصر . واحاول ان اطبق معلوماتي الارضية على ما أرى . هذه السماء طبقات من الهواء وهذه النجوم قطع من الاحجار تستمد ضوءها من كواكب أخرى أو من ذاتها لانها ملتهبة . وهذا القمر أرض صخرية مملوءة بالفجوات والاختلايد يستمد ضوءه في دورانه حول الأرض ، نعم كل هذا جائز ومعقول . ولكن تلك القدرة التي صنعت كل هذا ونظمته وجعلته على هذه الصورة المبدعة وبهذا التناسق العجيب . ماهي ؟ الطبيعة ؟ وماهي الطبيعة ؟ قوة هائلة تخلق وتنسق وتبدع ؟ ولماذا لا يكون الله الذي يحسه ويعرفه المؤمنون ؟ وهكذا كنت أفكر وأتساءل ولا استقر على شيء في النهاية ، كنت أريد أن أوقن ، أن أطمئن أن أقف على أرض صلبة ، أن أووب على شاطئ ، مريح أهجع فيه واستجم . كنت أريد أن أوقن أو أثق بأنني سأرى أمي مرة أخرى ، والتي بها بعد هذا العدم ، بعد هذا الفناء القاسي الخفيف . وفي احدي الليالي رأيت أمي في حلم . رأيتها تقف في حجرتي صامتة فاندفعت اليها أريد أن أضمها . أن أعانقها . أن أبكي على صدرها فرحة بعودتها غائبة عليها غيابها عنا . ووجدتها تشيح

بوجهها عني ، وتبتعد قبل أن ألمسها . وصرخت أسألها وأجري خلفها ..  
 وصحوت وكان الفجر يؤذن . وتولاني شعور مفرع فرحت أبكي حتى  
 استيقظت أختي النائمة بجوارني وأخذت تسألني فزعة عما حدث فرحت  
 أقول لها : أمي غاضبة مني ، أمي لا تريدني .. وظللت هكذا بضع لحظات  
 حتى ظننت أختي انني قد جنت . حتى هدأت وقصصت عليها رؤيائي التي  
 كنت أحس أنها حقيقة لا رؤيا !.. وفي الصباح قصصت على والدي  
 رؤيائي وأنا أبكي . وسألته في لهفة : أراها حقيقة أم وعمماً يخيل لي .  
 والا أين هي أمي الآن ؟ ألسنا قد دفناها وذهبت بغير عودة ؟ وقال والدي  
 والدموع في عينيه ولكن في ثقة : « نعم لقد دفناها . ولكن روحها  
 مازال حية حتى نلتقي يوم الحساب » وصرخت قائلة وأنا لا أتمالك  
 شعوري : أبي ان هذا وهم ، خرافة . والا فما الدليل المادي على ذلك ،  
 كيف نؤمن به وهو لا يصدق ؟ وأجابني بعد لحظة صمت مسح فياهدموعه  
 وكان صوته عميقاً صادقاً : ان الذي خلق هذا الكون بآياته المعجزة  
 وأوجد فيه الحياة لقادر على أن يحيي الموتى . أو لم يخلقهم من عدم ؟  
 أو ليست الحياة والموت دليلين ماديين ان لم يكن هناك غيرها على قدرة  
 الله ؟ هذه الحياة بما فيها من قوة وقدرة واشعاع وتعبير . وذلك الموت  
 بما فيه من صمت وتصلب وسكون ، وتوقف عن الحركة والتفكير  
 والشعور ؟ كيف لا نؤمن بآبئتي بهذه القدرة التي توحدنا وتميتنا دون  
 ان تقدر نحن على شيء ؟ ان مجرد التأمل في الفارق بين الموت والحياة لا بد  
 ان يجعلنا نؤمن بوجود القوة الخالقة القادرة التي تفعل كل شيء . اننا



لانكسب شيئاً بهذا الضلال ونحن عاجزون لاندرى ماذا يجبؤه الغيب  
 لنا بعد لحظة من الزمان .. وأحسست بأن عمق الصوت وصدق نبراته  
 يوظان في نفسي شيئاً، ويهزان قلبي هزة عنيفة . فأ تأمل بعمق الصورتين  
 المادتين الهائلتين : الموت ، والحياة . والوجود المادي ، والعدم الذي  
 لا توقفه قوة من قوى البشر او تمنعه . وقلت ، وصوتي يتهدج ويرتعش :  
 واذا كانت أمي موجودة بروحها ، فلماذا هي غائبة مني ، ولم تكن كذلك  
 في الحياة ؟ وصمت والدي لحظة ، ثم قال : قد يكون ذلك لانك لا تؤمنين  
 بالله . وكانت هي عميقة الايمان كما تعرفين .. وعلى أي حال فإن من الخير  
 لك يا بنتي أن تؤمني ، فالإيمان راحة وأمن .. وصمت . ومضيت بعد  
 قليل الى حجرتي ، ورحت اقطعها رائحة غادية ، بلا هدف ولا تفكير ،  
 أشبه بزورق هائم على سطح الماء لا يهدأ ولا يستقر .. ومضى النهار وفي  
 نفسي هم ثقيل وقلتي .. لا أريد أن أخرج ، ولا أود البقاء في البيت ،  
 أريد أن أبتعد عن الناس . وفي قلبي لهفة لأن أجلس معهم !  
 وأقبل الليل ، ووقفت في الشرفة أحرق في الفضاء ، وفي نفسي  
 لهفة لأن أعرف ما وراءه ! وهتفت وكأني أستغيث : يارب ، ان كنت  
 موجوداً فدعني أو من بك ! ثم انثيت أبكي على حافة الشرفة .. لا أدري  
 لماذا .. ولكني كنت حائرة مجهددة ملهوفة القلب لليقين .  
 وفجأة انبعث الى اذني صوت المذياع من الداخل . وكان الصوت  
 من احدى محطات الاذاعية . وكان صوت مقرئ ساهر التريل ..  
 صوت المرحوم الشيخ رفعت .. واستمعت الى هذه الآيات :

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى .  
تزيلا من خلق الارض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى .  
له ما في السموات وما في الارض وما بينها وما تحت الثرى . وان تجهر  
بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا إله الا هو له الأسماء الحسنى .. »  
واهتز قلبي ، وأنا استمع الى هذه الكلمات الحانية الرحيمة الودود :  
طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... ورحمت استمع الى بقية  
التلاوة .. والمقرء يتلو : « ان الساعة آتية أكاد أخفيها . لتجزى كل  
نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .. وقد  
سلب الصوت ارادتي وتفكيرى .

وعندما انتهى أحسست كأثني عدت من رحلة طويلة . وقد أجهد  
جسمي ونفسي . ولكن بغير حيرة ولا قلق .. وأحسست برغبة في النوم  
فاستلقيت على فراشي ، واستسلمت للنعاس .

وفي الفجر صحوت على صوت المؤذن ، ورحت أسمع له في السكون  
برهة ، وقد سرت في نفسي موجة من الراحة والطمانينة والأمان  
والسلام ، وأحسست أنني مع الله لاتفصلني عنه حواجز ولا أبعاد .  
ياالله ! ما أقرب الرحلة البعيدة حين يفتح القلب ويأذن الله !

وفي الصباح كان أول عمل أقوم به بعد تناول افطاري ، هو البحث  
في حجرة أبي عن القرآن .. لقد كان الشغف يملأ نفسي الى تلاوته  
والاطلاع على ما فيه !

وهأنذا الآن — يا صديقتي أعود اليك ، بعد أن عدت الى الله . أعود

لأصافحك والتقي مع روحك المؤمنة في رحاب الله الواسعة وفي كنفه  
الحنون ، منكرة لكل ماضي الشارد الجاف . مستبشرة بمحاضري ومستقبلي  
في ظل هذا اليقين وهذا الاطمئنان .. انني مطمئنة الآن الى أن روح أمي  
قد هدأت واستراحت ، ولم تعد غاضبة مني . وأنني سألقاها عندما تنقضي  
أيامنا على هذه الأرض . ثم نخرج من الاجداث مرة أخرى ، للقاء الله  
الكريم ، في يوم البعث والنشور .



لقد اندفعت - والرسالة في يدها - تحدث من حولها عن قصة هذا  
الايان ، وهي لا تكاد تسيطر على نفسها وملاحظها .. كان الحديث العجيب  
يرجها رجاً ، فلا تعرف كيف تشعر ولا كيف تعبر .. وأخذت الكلمات  
التي سترد بها على صديقتها تتجمع الى ذاكرتها ثم تهرب . لتتغير وتبديل  
من جديد ..

ولكنها قبل أن تبدأ اللقاء معها في رسالة طويلة حارة ، مضت الى  
الى حجرتها - وفي خشوع عميق - وقفت تصلي لله شكراً . فلقد  
جمعها مرة أخرى مع صديقتها العزيزة . ومن على قلب تائه قلق بالسلام  
والاطمئنان ...

## الشاردون

كانت المائدة التي يجلسان عليها منعزلة قليلا عن بقية الموائد التي تحتل حديقة الفندق الكبير ، مما جعلها يتحدثان بحرية ، ولا يخشيان أن يلتفت إليها أحد من الجالسين . وكان صديقه القاضي باحدى محاكم الوجه القبلي يقضي بضعة أيام في هذا الفندق راحة واستجماماً من عناء عمله الذي يستغرق كل وقته وطاقته . ويستدعي أن يكون دائماً يقظ العقل والضمير .  
وسأله صديقه وما يتناولان الشاي الذي وضعاه أمامها برهة ريثما يبرد قليلا فقد كان النهار حاراً رغم أن مايو لم يكن قد بدأ بعد . سأله مستفهماً : بالله قل لي ياطلعت هل تركت الشراب أم مازلت تحتسي منه ماشئت وأنت عند نيتك ؟ ثم انك لم تحدثني عن ذلك السبب الذي جعلك تشعر بالثمك ، مع انك كثيراً ما سخرت من الذين كانوا يذكرون لك شيئاً من هذا ؟ لقد قلت لي في احدى رسائلك : انك ستحدثني عن السبب ولكنك لم تفعل ..

قال : نعم لم أحدثك ولكني سأحدثك الآن .. ثم صمت قليلا وعاد يقول : لقد اقتنعت في تلك الليلة بأني على خطأ . ولكن الايام عادت فجرتني وما زالت . ويبدو أن جو القاهرة بما فيه من مباحج ومفاسد

لا يدع للانسان فرصة للتفكير أو التأمل وقد بت أرجو أن أعود مرة  
أخرى أو مرات الى الريف لكي أشعر أن هناك إلهاً يعبد ..  
وعجب منه صديقه وسأله عن معنى مايقول . فقال : اذا كنت  
تريد أن تسمع قصة الليلة التي أبقت عقلي وقلبي ونهتني الى الحقيقة التي  
غابت عني زمناً فإليك هي . وهي القصة التي كنت أريد أن أحدثك عنها ،  
ولكنها حين توالى عليها الايام سمدت في نفسي . وأهملتها . ولكن لا بأس  
من أن أسمعها لك لتقول لي رأيك بصفتك رجلاً متديناً ، بالنسبة لي على  
أقل تقدير فأنت لا تشرب . ثم انك تصلي ...



وابتسم صديقه وبدا مستعداً لسماع ماسيروني .. وتها هو للحديث  
وقد علا وجهه شيء من الجدم أخذ يقول : بعض الحقائق تحميه الانسان  
وتهمزه ، مع أنها قد تسمع من انسان بسيط قد يكون في ذاته تافهاً  
لا يستحق الالتفات . ولكنه مؤمن بما يقول ، ويبدو أن للايمان سحراً  
عجيباً يتخطى كل الاعتبارات ! انها جملة بسيطة سمعتها من رجل فلاح  
ساذج يشتغل حارساً في حقل . ولكنها كانت عميقة الاثر في نفسي  
جعلتني أفتح عيني على حقيقة كبرى ..

أنت تعرف أنني أذهب الى قريتي في الدقهلية كلما سنحت لي الفرصة  
بذلك ، فأنا رغم اندماجي في المدينة . أحب الريف أيضاً وأحب الاستجمام  
فيه وقد ذهبت الى هناك في أول فبراير لقضاء ثلاثة أيام . فجدي يتلف  
دائماً على رؤيتي وأحوالي كذلك . وقد جمعتي الصدفة هناك بصديقي

عبد الحميد — وهو أستاذ في الجامعة الآن وكان يقضي هناك أيام عطلة نصف السنة وصديق آخر موظف في المديرية ، وطبيب المركز وأحد طلاب السنة النهائية بالجامعة ، وهو من قسم الفلسفة . كنا خمسة وبضعة حراس من حراس الحقل ، وقد جلسنا في كوخ صغير ، وهو كوخ الحراس الذين يبيتون فيه لحراسة المحاصيل ، وقد أوقدوا لنا النار أمام عتبة الكوخ وجلسوا يشوون لنا بضعة أزواج من الحمام وشيثاً من اللحوم التي كان مقررأ تناولها في العشاء الربيعي الجميل الذي دعوت اليه أصدقائي هؤلاء . وكان الكوخ مفروشاً بصفة خاصة . وقد صفت عند جدرانها الوسائد لنتند إليها ، بينما وضعت في وسطه منضدة ريفية مستديرة وفوقها صينية عليها بعض الفطائر الريفية والمحشوات التي صنعت في الدار . وكنت أنا قد أعددت العدة لهذه الليلة فأحضرت زجاجتين من النبيذ ، مع أنني كنت أعرف أن صديقي الاستاذ شديد التدين ، وأنه لن يشار كنا الشراب ، ولكن عصام الطالب الجامعي شجعي على ذلك وقال ساخرأ : سأجعله يشرب معنا ويترك إلهه في هذه الليلة ، ولكن عبد الحميد أضع علينا الليلة التي كنا زريدها ، فقد اعتذر عن العشاء معنا أو مجالستنا اذا شربنا . ولم أجد بدأ من ترك الزجاجتين مقفلتين بمجاملة لصاحبه . فقد كنت أنا المضيف ، وعلي أن أراعي اللياقة مع ضيوفي ، وحقن عصام وأخذ يسخر بألفاظ تعتبر كفرأ صريحأ عند المتدينين . ولم ينهره الاستاذ كما كنت أتوقع ، بل رأيتُه يتسم ساخرأ وفي ملاحظه احتقار وزيارة لعصام . أما الخفراء فقد زجر أحدهم واستعاذ الآخرون بالله وبدأت في

ملاحظهم الدهشة لكلام الطالب الغريب . ولكنهم لم يجروا على أن يقولوا له شيئاً .. أما صاحبي الطبيب فقد ظل صامتاً وكأنه لا يريد ولا يعارض ..

وتناولنا العشاء وبدأنا في شرب الشاي . وكانت الليلة باردة والسما صافية من الغيوم على غير العادة في مثل هذا الوقت من العام . وهذا الجو النفسي قليلاً وأخذنا نتحدث وتناقش . وما لبث النقاش أن عرج على الدين وعلى المؤمنين بالله . وأخذ عصام يبرهن بفلسفته الوجودية على صدق اعتقاده بسيادة الانسان لنفسه وحياته ، وعدم وجود قوة أخرى تسيطر عليه . وأنت تعرف أنني أعيش هكذا كما يحلو لي . ولكي لم أكلف نفسي مشقة البحث العميق يوماً في ما اذا كانت هناك قوة حقيقية تدير الكون أو لم تكن . ولهذا لم أمض مع الطالب الشاب مؤيداً . ولكي لم أدافع على أي حال . أما صديقي الاستاذ فقد ظل هادئاً في نقاشه . ثم قال موجهاً الحديث للجميع أنا لا أريد أن أمضي في مناقشة قضية قد نوقشت ، ووصل فيها العقلاء من العلماء والفلاسفة الى النتيجة التي لم يكن بد من الوصول اليها . وهي أن وراء هذا التنظيم البارع الدقيق في كل ما يشتمل عليه الكون ، قوة خالقة قادرة مهيمنة . وانما أريد أن أقول . ان الذي لا يؤمن بمبادئ السماء ولا يعمل بوصايلها ويعيش بفلسفة من فلسفات الأرض يصطدم هو نفسه بنتيجة هذه الفلسفة الاخلاقية . لأنه حين يدعو اليها ينظر الى ذاته فقط ومطالبه ، وينسى مطالب الآخرين التي تعارض مع رغباته ومطالبه . هذه طبيعة الانسان ! فكما أن عينه

لاستطيع ان تنظر في اتجاهات متعارضة في نفس اللحظة ، فان نفسه  
لا تشمل كل الزوايا والمنحنيات وهو يشرع ، بل لا بد ان يتغلب اتجاه  
ما على الآخر . ولهذا القصور يجب أن يتبع مبادئ ثابتة مفروضاً أن  
يشرعها خالق خبير مهيمن قدير . ولدي قصة واقعية سأرويها لكم الآن  
لتروا كيف يشرع الانسان لنفسه ، وكيف يجني ثمرة هذا التشريع  
الذي يحمل في داخله قصوره وعدم شموله لكل المقتضيات ..  
وسكتنا وسكت الطالب المتحمس لفلسفته ريثما يروي الاستاذ  
حكايته . فأخذ الأخير يقول :

كان لي زميل وأنا أدرس في لندن من احدى البلاد العربية ، وكان  
مفتوناً بالفلسفة الوجودية . وكان يعيش بها ويحاول تطبيقها في كل أمور  
حياته ، رامياً طبعاً بكل مقدساته عرض الحائط ، اذ كان يدعي أن هذه  
المقدسات هي التي عاقتنا عن النهضة وعن الحياة . ومن ثم فهو يريد أن  
يبنى حياته على أساس آخر طليق . أساس مستمد من التجارب التي انتهى  
اليها الغرب .. والغرب قد طرح الدين وكل المقدسات ليستمتع بالحياة ..  
وعبثاً كنت أحاول أن أفهمه حقيقة الوضع للمسلمين . وأنهم قد هانوا  
وذلوا واستكانوا حين تركوا دينهم الذي لا يرضخ معتقوه لذل أو استعباد  
ولا يعيشون أبداً خائفين كسالى وهم يؤمنون بهذا الدين . عبثاً كنت  
أحاول اقبامه هذا بالأدلة والبراهين التاريخية وغير التاريخية . كما كنت  
أحاول أن أفهمه الفرق بين ذلك الدين الذي تحرر منه الغرب عندما أراد  
أن يعيش ، ذلك الدين الذي كان يبيح حرق العلماء والباحثين لأنهم



خالفوا تعاليم الكنيسة ، وبين ديننا الذي يدعونافي كل آية من آياته لبحث والتفكير والمعرفة ، والتنقيب في الأرض وفي الآفاق . عبثاً كنت أصنع ذلك فقد كان أشبه بالاعمى الذي لا يرى غير الظلام . وهكذا كان يحقق وجوده حسب ماتقليه عليه فلسفته . وكان الجو الخلقى هناك يبيح له كل شيء . وخصوصاً في باريس التي كان يسافر إليها بين حين وآخر ، فقد كان هو مؤسراً يصرف يبدخ ...

ولنا شهادة الدكتوراه وسافر كل منا الى بلده . وظلنا على صلة بالمراسلة رغم اختلاف مبدأينا وكنت أقرأ له بعض المقالات في الصحف . وأتابع نشاطه في ذلك المجال . وكانت كلها طبعاً تنشر فلسفته الوجودية وتهدم كل ما يمكن أن يقف في طريقها من المقدسات . مرة كان يقول : ان الوجود الأرضي هو الغاية والحقيقة التي ما بعدها حقيقة . ومرة كان يلف ويدور بفلسفته لكي يوه من وراء ستار أن الرسالة الحمديّة كانت حدثاً من أحداث التاريخ . وأنها أدت دورها في ذلك الحين ، وأن على الفرد العربي المتحرر أن يبحث عن فلسفة جديدة ينهض على أساسها ؛ وكنت أنا أضحك من هذه المحاولات ومن هذه العقلية التي تصور أن فلسفة صغيرة كالفلسفة الوجودية يمكن أن تهدم ديناً كاملاً شاملاً يسد كل حاجات الانسان ويجري مع فطرته في كل اتجاه ويصونها من الدمار . وكنت أرثي لمثل هذه العقلية التي ركبت بوحى من الغرب أو صنعت في الغرب ، تماماً كما تصنع العربات والآلات التي ترد لنا من هناك ؛

وذات يوم وصلتني رسالة منه وبدخلها صورة له مع عروسه . وقد كتب يسألني رأيي في جمالها ؟ ثم أعقب قائلاً : « اني أحاول أن أحقق فلسفتي في كل اتجاهات حياتي . فأنا أريد وأنفذ . وقد أردت أن أتزوج بفتاة جميلة ومن المؤمنات بما أؤمن به فتزوجت ، أما أنت يا صديقي فلعلك تنتظر أن يختار الله لك زوجة لأن كل شيء بأمره . وضايقي طبعاً أن يتهمك على ذات الله بهذه الواقعة . ولكني عدت فهدأت نفسي قائلاً : ليكن وماذا بضر الله سبحانه من هذا ؟ انه علي كبير غني عن العالمين . وانما الذي سيخسر هو هذا الذي يمضي في حياته على غير هدى وكأنه حيوان ضال . وهو في النهاية واصل الى الله وفي قبضته ، والا فإين سيهرب من الموت ان استطاع أن يهرب من كل الأقدار الأخرى ؟ . ولكني لم أرد أن أترك يومها تلك السخرية فرددت عليه قائلاً « نعم وسوف أنتظر حتى يهديني الله الى زوجة صالحة ذات خلق ، لاتسعى لتحقيق وجودها الا في يديها ومع من يشاركها حياتها . لأعيش معها هادئاً مطمئناً » ولم يكتب الي بعد ذلك ولعله قد استاء من سخريتي وما وراها من تلميح !

ومضت خمسة أعوام لم ألتق به فيها ولم أكتب له أو يكتب الي . كنت أقرأ فيها بعض مقالاته التي كان يحقق فيها وجوده وفلسفته ، حسب تعبيرهم ! . وفي احد اعداد المجلة التي كان يوالي النشر فيها قرأت خبراً عنه هزني من أعماقي ، كان خبراً عن اصابته في حادث وهو يقود سيارته ، اصابة خطيرة استدعت نقله الى أحد المستشفيات الأجنبية هناك في بلده ، تمهيداً لارساله الى أوروبا للعلاج عندما تسمح حالته . لقد

هزني الخبر من ناحيتين ، من ناحية أنه شخص أعرفه ولي معه ذكريات  
تشد النفس معها كانت درجة الاختلاف ، ومن ناحية أخرى تكيف هذه  
الأصابة في نفسه . هل كانت ياترى بناء على ارادة له وتصميم ؟ أم كانت  
خارجة عن هذه الارادة التي لا يغلها شيء ؟ .. ومضيت أتتبع أخباره ،  
ولكني لم أستطع أن أعرف عنه غير أنه ما زال حياً يعالج من تلك  
الاصابة القاتلة .

ومر عام وسافرت الى بلده مع أحد الوفود الثقافية . واتهزت تلك  
الفرصة ورحت أبحث عن داره وأحاول الاتصال به حتى تمكنت من  
ذلك أخيراً .. ولن أستطيع ان اصف لكم شعوري عندما رأيته جالسا  
على أريكة كبيرة في حجرة نومه .. كان منظرأ اهتز له قلبي وكيانني كله  
كان يجلس بلا ساق ولا ذراع .. بترقا من اساسها وكأنها لم تكونا من  
قبل .. ومد لي يده اليسرى مسلماً ، فبكيت وانا اضمها بين يدي واردد:  
كيف حدث هذا يا اخي ؟ كيف وأجاب مستسلماً في مرارة : هكذا  
اراد الله .. وكدت اقع ساجداً على الارض ، المأ لهذا المنظر البشع ،  
واستغفراً ورهبة من الله ، خالق هذا الكائن البشري المعجز الذي  
ركب فيه الخير والشر بهذا الزواج العجيب !

وعندما وصل الاستاذ الى هذا القدر من قصته رأيت احد الحراس  
يتامل في جلسته ويتمتم ثم يتوجه الينا بالحديث قائلاً « آمن بقدرته بعد  
ان اخذ منه ساقه وذراعه ، وقال له هيا اصنع لنفسك غيرها مادمت  
تفعل ما تريد » قالها ساخراً متهاكاً ولكن في غير شماتة ، فاهتز لها قلبي

واحسست بأن كل ما حولي يكاد يهتز أيضاً . هزتي الحقيقة ، الحقيقة الكبرى وان كان الذي احس بها وادر كها رجلاً امياً ساذجاً ، حقيقة هذا المخلوق البشري القادر المتحدي في لحظة ، العاجز المستسلم الذي لا حول له ولا قوة امام قدر الله القادر على كل شيء .. لقد دهشت ان يتبع الرجل القصة ويدرك ما وراء الكلمات وهو ذلك الفلاح البسيط الذي لا يقرأ ولا يكتب وأحسست أننا صغار حين نمتنع عن الدراسة والتفكير والتأمل في كل ما يحيط بنا من معجزات ، ونحن نملك أسلحة العلم والمعرفة ..

وعاد الاستاذ عبد الحميد يقول : « لقد بقيت معه ساعة عرفت في خلالها تفاصيل الحادثة المؤلمة وعندما هممت بالذهاب تشبث ليبييني معه أطول مدة ممكنة ، فاعتذرت له بأن لدي اجتماعاً عاجلاً ، ووعدهت بزيارته مرة ثانية قبل سفري .. وخرجت ونفسي تفيض بالألم . وقد تمتيت الا أزوره مرة اخرى ولا أراه على تلك الصورة التي تدمي نفسي . ولكني كنت قد وعدته . ولا بد أن أفي بوعدتي ..

واستقبلي في المرة الثانية بشوق وقد تطلع الي وأنا مقبل كمن ينتظر مني شيئاً ، كنت لا أملك له غير مشاعري ورجائي أن يخفف الله على نفسه وقع هذه المصيبة القاتل .. وجاءت والدته في هذه المرة وجلست معنا ، وكان منظر لهفتها عليه واحتراق قلبها للأصابه ، يفتت القلب والنفس وقالت لي بحرقة وألم في أثناء الحديث : « لقد تركته الملعونة بعد الحادث شهرين اثنين . تركته وهو مازال يعالج . طلبت الطلاق لتتزوج

من طبيب هناك في المستشفى . ورمت طفلها الذي لم يتعد العام الرابع من عمره . لم تطق ان تضحي أقل تضحية من أجله . كانت نفسها فقط هي التي تهتما . فانظر أي حسنة وأي دناءة ؟» وفهمت ان الحديث يعني زوجته الوجودية . ونظرت اليه فرأيت على ملامحه أنماً مكتوماً . ثم نظر الى والدته . وقال منفعللاً « يا أمي أنا لا أريدها . لتذهب الى الجحيم ، لا أريد أن تتألمي من أجل هذا الأمر . يكفيني ( فريد ) . وفهمت من هو فريد انه ابنه الوحيد الذي بقي له ..

وخرجت من عنده كلمرة الاولى دامي القلب والنفس . وكنت مستريحاً لأنني عائد الى وطني ولن اضطر لزيارته مرة اخرى ، فقد باتت نفسي لا تحتمل ذلك الام . وما زلت حتى الآن ادعو الله له في صلاتي ان يعرف الطريق الى الله ليتوب عليه، ويكفّر بهذا الأثم عن اثمه السابق ، والله غفور رحيم .



انتهى صديقي من حديثه وظلمنا صامتين بضع دقائق تتسمع الى انفاسنا ودقات قلوبنا الهادئة الرتيبة . وكان الميل قد أوغل في الظلام واشتدت برودته — ولم يستطع نور المصباح في داخل الكوخ ان يبدد من نفسي ذلك الشعور بالرغبة والخوف .. كان الفراغ من حولنا وصوت اهتزاز أعواد القمح ، وارتعاشات النجوم وامتداد الافق أمامنا ، كل هذا كان يزيد من الرغبة التي أحدثتها قصة صاحبي ، وتشعرتني بأني داخل عبضة قوية تضيق حول عنقي شيئاً فشيئاً .. وأنقذني صوت صديقي

الدكتور وهو يطلب من الحراس صنع شاي لنا . وتغير الجو بالحديث واستعداد الحارس لايقاد النار . وأراد الطالب عصام أن يزيد ذلك الاثر الذي تركته قصة الاستاذ فسحب زجاجة الشراب المقفلة وقال ساخراً : دعوني أنا أشرب وحدي من هذا الشراب اذا كنتم أتم تخافون من .. من الله ! وقهقه ساخراً متحدياً : ولكن أحداً لم يجبه بكلمة ولم يحاول منعه . فقد كنا غير مستعدين للحديث والجدال . وقد احسست أنا بثقل هذا المخلوق على نفسي لأول مرة ، وانكرت تصرفه وانكرت في يده منظر الشراب . وكأني أنا لا أصنعه ! ومنذ تلك الليلة وأنا أحس بالقلق وبهزة مفاجئة في نفسي كلما قربت كأساً الى شفتي في أية مناسبة .

وتطلع الى صديقه القاضي . وتبادلا نظرة صامتة !

وصيماهما الاثنان برهة وأخذتا يتطلعا الى النيل الذي انعكست على

مياهه ألوان الأصيل ..

✦ ✦ ✦

## دعاء

كان نور الصباح ما يزال خيوطاً تتسلل وتمتد في الافق وتنداح على الارض ، ليشرق في النهاية يوم جديد ، يستأنف فيه الاحياء نشاطهم واكتساب ارزاقهم المقدره لهم في هذا اليوم . وكانت هي تمضي في خطوات سريعة مضطربة ، وفي رأسها دوار خفيف من أثر السهر ، وتوزع الفكر والقلب . فلم يكن جفنها قد ذاق النوم في هذه الليلة الا قليلا ، منذ أن صلت العشاء وآوت الى فراشها ، حتى صحت بعد اذان الفجر لتصلي ثم تذهب بعد ذلك الى حيث انتوت ان تذهب ، الى حيث ترى ابنا العاق الذي لم تر وجهه منذ اربعة أشهر ، والذي أبي الا ان يعذب قلبها ، وبدوس عواطفها ، ويحرمها رؤيته كل هذه الشهور .

لقد علمت منذ يومين انه سيسافر الى امريكا في مهمة طبية تستغرق عاما وبعض عام . فانطلق شعورها وعواطفها التي كبتتها طوال هذه المدة ولم يعد في استطاعتها الا تراه قبل هذا السفر . فقررت ان تذهب الى محطة المترو التي يركب منها لتراه ، وتحدث اليه ولو بكلمة واحدة قبل أن يذهب . فما عادت تنتظر أن يأتي هو اليها ، أو يعود الى البيت بعد أن سلبته منها تلك الضالة التي لاخلق لها ولا ضمير .

لقد عاشت تلك الشهور الأربعة وهي تكاد تحس احساساً مادياً بلذع النار التي تأكل قلبها كما سمعت خبراً عنه ، أو كلمة تذكرها بموقفه من قريب أو بعيد . وها هي ذي أخيراً تنسى كل هذا ، وتذهب لرؤيته رغم موقفه ورغم قلبه العاق .. لقد كانت كل جريمتها هي ووالده وأخوته هي معارضتهم له في الزواج بفتاة من الطريق . فتاة تعرفت به في مكان عام ثم مضت تلاحقه في وقاحة ، وفي كل مكان ، لتستحوذ عليه رغم انف أهله ورغم أنف الفضيلة ورغم أنف الحياء .. كانت كل جريمتهم أنهم رأوا في هذه الفتاة وفي أهلها الذين يعرفون ما تصنع فلا ينبض لهم عرق ، أناساً لا شرف لهم ولا خلق ، فعارضوه في الزواج بها ، لأنهم رأوا في هذا ضياعاً لتربيتهم وانهباً لمثلهم التي عاشوا بها وما زالوا يعيشون ، فما كان منه الا أن ترك البيت ومضى الى حيث تقيم تلك الضالة ، مضجياً بأبويه وأخوته ، مفضلاً عليهم الحياة مع شاردة تلقي شبابكها في الطريق بلا كرامة وبلا حياء .. انها لا تكاد تتصور أن محسن قد صنع هذا وطاوعه قلبه ، وهان عليه أهله ، وقرر أن يعيش كل هذه المدة دون أن يرى أحداً منهم - حتى أخته الصغيرة التي لم تتجاوز العام الخامس ، والتي مازالت تذكره رغم مضي هذه المدة - وفي كل مساء تنتظره حتى تنام ..

لقد عارض أبوه في ذهابها لرؤيته ولعنه لها ، وذكرها بعقوبه وفساد نفسه . ولكنه عاد فتركها تصنع ما تريد حين رآها تبكي وتقول له في توسل : « انني ارجوك . انه ابني رغم كل شيء ، وقد يحدث له حادث في الطريق . فدعني أراه ولو مرة واحدة قبل أن يذهب الى هناك » .



سارت والطريق خال الا من بعض المارة القليلين ، وبعض سيارات  
تقطعه من آن لآخر ، وقد أفسح نسيم الصباح وهدهو الطريق المجال  
لبعض صور الماضي أن تنبعث ويبرز بعضها الى خيالها فتزيد من حسرتها  
وتشعرها بعظم خسارتها وفقدانها الكبير .. انها تذكر يوم ولد محسن  
كما لو كان بالامس القريب ، يوم اوشكت على الموت قبل ان يرى وجهه  
النور ويخرج الى الوجود . حينما تطلعت الى وجهه لحظة لتستوثق من أنه  
حي لم تذهب أنفاسه بعد . فقد كان الطيب يأساً من خروجه حياً ..  
يوم تطلعت الى وجهه الصغير الجميل ثم غابت عن وعيها ساعتين من الزمان .  
وحين عادت الى رشدها كان أول من سألت عنه في لهفة هو ، هل  
ما زال حياً أم أنه قد فارق الحياة ؟ . ويوم ان خرجت من المستشفى وهي  
تحمله فوق يديها كان العالم كله يرقص في خيالها وأمام عينيها .. كانت  
كأنما تحمل الامل المشرق والسعادة التي لاتحدها آفاق الدنيا الواسعة ..  
ثم نما وآمالها تحدوه وترف حوله وتخطو معه في الزمن خطوة خطوة ..  
وعندما بلغ العام الاول من عمره واقم له حفل ميلاده الاول ، كان قلبها  
يشرق ويملأه النور كلما سمعت تهنئة أو دعاء من احدى الحاضرات بأن  
يطيل الله عمره ويقيه لها أملاً وذخراً .. وعندما وقفت خلفه واسندته  
بيديها في تلك الليلة لتلتقط له صورة تذكارية ، كان قلبها يرقص وأساريرها  
تنبض بالسعادة الجارفة الفياضة .

ثم نما وبلغ الرابعة من عمره دون أن يشاركه في قلبها أخ أو أخت .  
فازداد تعلق قلبها به وامتلاً لهفة عليه وخوفاً .. وأصيب بالتيفود . وتمنت

لو كانت هي التي أصيبت ، وفدته بروحها وحياتها وكل ما تملك من مال  
ومتاع .. وسهرت بجانبه ترعاه وتضرع الى الله في كل لحظة الا يطفىء  
سراج حياته ، وأن يأخذ من عمرها ويصل عمره ليطول وينمو . كان  
قلها يتمزق في كل آهة تخرج من بين شفثيه . كان ينام عندما يبارحه  
الام فلا تهدأ هي ولا تستقر . بل تضع اذنها بالقرب من فمه وأنفه لتسمع  
انفاسه خوفاً من أن يسلبه الموت منها في لحظة من لحظات هذا الهدوء .  
وهكذا تظل ساهرة في صحوه ومنامه ، غير عابئة بما يصيبها من هزال  
وهلاك .. وحين أبل من مرضه كانت هي قد أصبحت كالميكال العظامي ،  
ولكنها كانت سعيدة بنجاته ، شاكرة لله فضله ورعايته ، متمنية أن  
يصيبها كل ما يمكن أن يصيبه في المستقبل من مكروه .

ورزقت بغيره بعد ذلك بينين وبنات . ولكنه ظل هو مميزاً في  
شعورها وجوارحها .. ظل مدللاً لا ترفض له طلباً ولا يقوى شعورها على  
منع شيء عنه . كان والده يحذرهما من عاقبة هذا التدليل حين يرى ضعفها  
حيال رغباته . ولكنها كانت تدافع عنه وتحتلق له الاعذار وتبرر له كل  
الاعمال والرغبات .. كان الاخوة ينجحون في دراساتهم بتفوق ، وتعطي  
لهم الهدايا وتقام لهم حفلات التشجيع . أما هو فكان ينجح بتقديره «مقبول»  
في بعض السنوات ، ومع هذا كان الحفل الذي يقام له والهدية التي تقدم  
اكثر حفل بهجة وأثمن هدية تعطي . فاذا ما اعترض والده أو تساءل  
اخوه أو اخته عن ذلك أحيوا بأنه الابن الاول والاكبر الذي يجب أن يحبه  
الكل ويقدروه ...

كان يسهر ليستذكر دروسه هو وبعض زملائه من الطلاب . وبنام الخدم وبنام كل من في البيت وتبقى هي قلقة ، تنام وتصحو وتذهب اليه وتسأله : هل يريد شيئاً أو يرغب في طعام ؟ حتى ينام قتهداً وتستريح . كانت تود لو تحمل عنه عبء الدروس وارهاق التحصيل . كانت تذهب لتوقظه في الصباح ليحضي الى جامعته ، وفي قلبها اشفاق عليه وأسف — تمسك الكلمة بين شفيتها لتبقيه نائماً لحظات أحر .

وحين كان يفتح عينيه وترى فيها رغبته في مواصلة النوم ، كانت لاتقوى على معاودة النداء ، فتدعه وتمضي وقلبا يقطر شفقة عليه وألماً على تعب وارهاقه !

لقد انقضت سنوات دراسته كما ينقضي أي عمل مرهق بالنسبة لها . وحين نال شهادته بتفوق ، بفضل عنايتها وحثها له على ذلك . كانت الدنيا لاتسع فرحتها ، وكانت تشعر أن شبابها وحيويتها قد عاد اليها بفضل هذا النجاح . وقد أخذ خيالها يرسم له ذلك المستقبل الذي تطمع فيه وترجوه له . ولقد نال أخوان له شهادتها العالية بعد ذلك وفرحت لها وامتلاً قلبها سعادة وبشراً . ولكن لون فرحتها به هو ، كان لونا فريداً . كان هو يمثل شبابها وأمانيتها وأحلام ماضيها كله . كانت كل خطوة يخطوها الى الأمام تمثل أملاً داعب خيالها يوماً ورف في أمانيتها . ولقد تسرب هذا الشعور الى اخوته فاذا الكل يحسه محاطاً بتلك الهالات التي صنعها خيالها حوله فاذا الكل يحبه ويؤثره على نفسه ، ويتنازل عن رغباته في سبيل ارضائه ان كان هناك ما يتعارض وهذا الرضاء .

\* \* \*

ثم التحق بعد تخرجه من كلية الطب بالجيش ، طبيباً ضابطاً . وكانت هذه فرحة اخرى للقلب الخافي المحب المفتوح .. انها تذكر يوم ارتدى لأول مرة زيه العسكري ، تذكر كيف رقص قلبها فرحاً وهي تتطلع اليه مقبلاً نحوها ، وكيف ضمته مهنئة وربت على ظهره وكأنا تخيل لنفسها الفرحة أن هذا هو الطفل الصغير واليافع الذي تعهدته بدمها وأعصابها حتى صار هذا الطبيب الضابط الشاب ..

ثم إنها لن تنسى الليالي التي قضتها ابان المدوان الثلاثي . الليالي التي لا تحب ولا تقوى على استعادتها مرة اخرى في حياها . عندما كان هناك متدبلاً للعمل في الميدان . حين كان الكل ينامون وتسهر هي . والصور المتعددة تترامى لخيلتها فتكاد أن تصرخ لتبعدها وتهرب منها . صورته محمولاً الى المستشفى وهو فاقد النطق وقد فقد ذراعه أو ساقه . وصورة اخرى وهو ملقى جريحاً بين الجرحى أو قتيلاً بين القتلى .. كم عذبتها هذه الصور وأطارت صوابها فهربت منها بالدعاء الى الله أن يكذب ظننها وحيالها وتصوراتها ويعيده اليها سالماً مع السالمين .. فلما أجاب الله دعاءها وأعادها اليها ذات ليلة وقعت مغشياً عليها وهي تضمه وتقبل كل اصبع وكل طرف من أطرافه التي تخيلت أنها قد فقدت أو مسها مكرود . كانت المفاجأة والفرحة أقوى مما تحتمل أعصابها التي أرهقتها السهر وأرهقتها التصورات . بالله .. كيف هان عليه كل هذا عندما قرر أن يغادر البيت ولا يعود . وهو يعلم أنها لم تكن تنام الا بعد أن يعود من عمله كل ليلة ، قبيل منتصف الليل ؟ كيف استطاع ان يجمع ثيابه وهم نيام ، ثم يتسلل في الصباح قبل

أن يستيقظوا تاركاً لهم ورقة صغيرة فوق مكتبه يخبرهم فيها انه ذاهب  
 ليعيش الحياة التي لم ترهم ولكنها الحياة التي لا يستطيع ان يحيى سواها !  
 لقد مضى الى حياته تلك وخلف قلوباً متعددة يملأها الحزن والهمم والفراغ ..  
 لقد وقعت عند سماعها هذه الكلمات مصابة بانهيار عصبي ، اما ابوه فقد  
 كتم حزنه وغيظه وصمت في سخرية مرة . اما اخوته فقد انطوى كل  
 منهم على هم ثقيل . حتى الصغيرة ( سوسن ) راحت تنتظره كل ليلة  
 وتبكي كلما طال مدة غيبته وشاقها ان تراه . انها تتطلع الى صورته وتسأله  
 في براءة : متى يعود ؟ انها تمزق قلوبهم بهذا النداء وتذكرهم بالمأساة كلما  
 حاولوا ابعادها عن واقعهم وأذهانهم . فكيف استطاع أن ينخلع من هذا  
 العش الذي يحنو عليه ويحيطه بالحب والحنان الخالص . من اجل ضالة  
 صادته أخيراً . لأنه كان آخر من وقع في الشباك !؟



وانتزعها من ذكرياتها قرب وصولها الى المحطة ، فأسرعت الخطو  
 وقد بدأ قلبها يخفق وبدأت قواها تخور وهي لما تلتق به بعد... ووقفت  
 على الرصيف زائفة تتطلع الى كل قادم من بعيد عله يكون هو ، وكما  
 اكتشفت أنه غيره شعرت بالراحة والبهجة في آن ؟. انها تريد أن تراه وفي  
 نفس الوقت تشفق من هذه الرؤية وتحشاها . انه العذاب الذي يتلون  
 وتعدد أشكاله منذ أن ترك البيت ومضى .. وفجأة أقبل المترو ووقف  
 في محطته . وازل منه بعض افراد وبدأ الواقفون بانتظاره في الصعود اليه ،  
 ولم تره من بينهم ، ولكنها ما لبثت أن أبصرت به يسرع الخطو ليلحق

بالقطار .. وتصدت له دون أن تستطيع اخراج النداء باسمه من بين شفيتها  
فقد احتسبت الكلمات في فمها . وأبصر بها وتوقفت خطاه لحظة ، ولكنه  
استدار مسرعاً حتى لا يفوته القطار . وصعد وهي تتطلع اليه ذاهلة وهو  
يفيب وسط الركاب باحثاً عن مكان له ؛ وتحرك المترو قبل أن تلتقي  
نظراتها بنظراته مرة اخرى .. وما أن خلت المحطة من القطار حتى كانت  
هي تجش بالبكاء بصوت مسموع ..

وتحركت تجر قدميها عائدة الى البيت وقد عجزت عن حبس دموعها  
المناسبة على خديها .. ماذا تقول لو والده الذي منعها في أول الأمر من  
الذهاب ، ولعن عقوقه وفساد قلبه . وماذا يصنع اخوته لو عرفوا انه  
قد بلغ هذا المستوى من القسوة والذنءة ؟ أتكذب على والده وتقول له  
انه قد حدثها وترك القطار يفوته ليأخذ الذي يليه بعد عشر دقائق ،  
ليحدثها ويرى لماذا أتت في هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ انها لا تستطيع  
أن تكذب ، وفي نفس الوقت تحشى أن يزيد هذا من كره والده أو  
نفوره منه .. وعادت بعد قليل تحدث نفسها بأنه ربما كان معجلاً لأمر  
هام لا يستطيع التخلف عنه . ربما كانت لديه عملية سريعة لا يستطيع  
ارجاءها فلا يمكن ان يكون قلبه قد وصل الى هذا الجحود . ان هذا  
فضيح لا يمكن تصويره .

ولم تكن قد استقرت على شيء عندما قابلتها صديقة لها ذاهبة الى  
المحطة ، وسألها عن سر مجيئها الى هنا في هذه الساعة . وقصت عليها

ما كان منها ومنه منذ لحظات .. وقالت لها صديقتها « ألم أقل لك من قبل  
اتركي أمرك لله ، وانزعي هذا الولد من نفسك وكأنك لم ترزقي به أو  
كان مات منك وهو صغير ؟ هذا ما يجب في الحقيقة أن تصنعه كل أم تجاه  
أي ولد عاق ! » وكأنما خلع قلبها قول صاحبها المنفعلة من أجلها . وقالت  
« لا ليحمله الله لشبابه ، أما أنا فلست في حاجة إليه ، وإنما كنت أريد  
أن أراه قبل أن يغيب » .. ثم توجهت بدعائها الى الله أن يحفظه في  
سفره وأن يجنبه شرور الطريق !



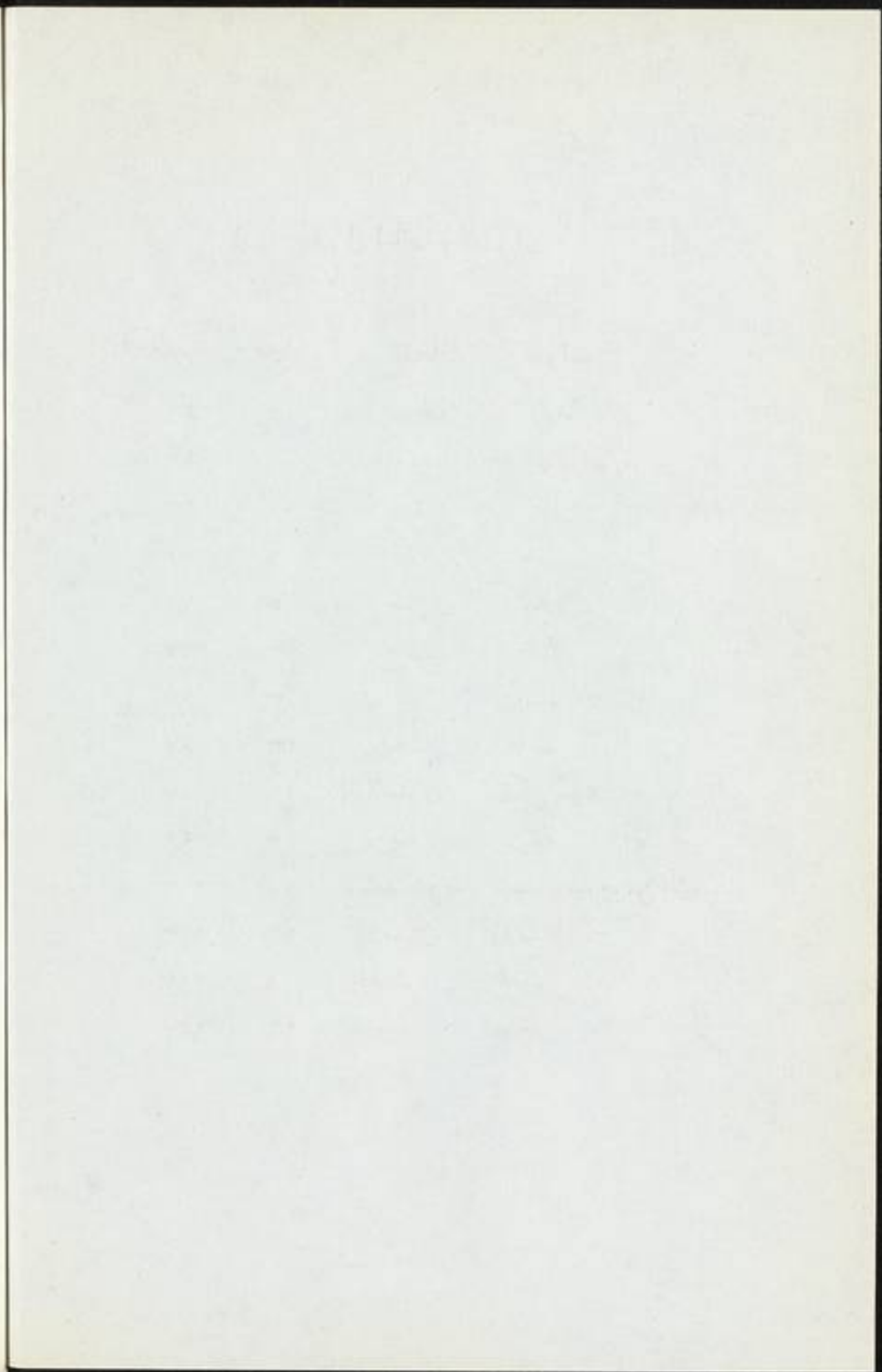
# الفهرس

	صفحة
المصير	٤
أشواك في الطريق	١٩
الفائب الذي عاد	٣٢
أشجان عيد	٤٣
قورة	٥١
غريب	٥٩
عودة القطيع	٦٧
العودة	٧٦
الشاردون	١١٨
دعاء	١٢٩
مولد قلب	٩٨



## جدول الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
النهاية	الناحية	١٢	١٦
فرسول الله يقول	فأله يقول	٥	٢٢
بدأ	بدأت	١١	٢٣
قبر	قبرا	٦	٧٠
الذين	الذي	٥	٧١
'طلسي	ظالمي	١٣	٧٢
نفسها	نفسا	٣	٨٣
قلبت	قبلت	١٣	٨٧
لم تكن سوى	لم إلا سوى	١٦	٨٧
غربية	غربية	٣	٩٩
يستمد ضوءه من الشمس	يستمد ضوءه	١٠	١١٣
أؤوب الى	أؤوب على	١٦	١١٣
الحدث	الحديث	٨	١١٧
لصاحي	لصاحبه	١٦	١٢٠



صمم الغلاف

الأستاذ : شريف الراسي

# دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - ص. ب. ٩٦٢ - هاتف : ١١٠٤١

ق.س		تقدم
٢٥٠	علي الطنطاوي	في سبيل الاصلاح
٢٠٠	»	دمشق
٧٠٠	»	أخبار عمر
٣٠٠	»	من نفحات الحرم
٤٠	كل حكاية بـ	سلسلة حكايات من التاريخ
٥٠	»	سلسلة أعلام التاريخ
٦٠	»	سلسلة الثقافة الشعبية
٢٠٠	ابو الحسن الندوي	روائع اقبال
١٥٠	علي شحاتة	الرق بيننا وبين اميركا
٦٠٠	سعيد الافغاني	أسواق العرب
١٥٠	تحقيق الاستاذ سعيد الافغاني	ملخص ابطال القياس لابن حزم الاندلسي
١٠٠	حسن عمار	مصور الدول العربية المتحدة
٢٥٠	رضوان الندي	العز بن عبد السلام
٧٥٠	بتحقيق الطنطاويين	صيد الخطا ٣ أجزاء لابن الجوزي
٨٠	ابو الأعلى المودودي	نظام الحياة في الاسلام
٢٠٠	»	الربا
٥٠٠	»	الحجاب
٣٠٠	»	تفسير سورة النور
٢٥٠	نجيب الكيلاني	ليل الخطايا ( قصة )
٢٥٠	»	طلوع الفجر
٢٥٠	عزيزة الابراشي	اصلاح

1850

1851

1852

1853

1854

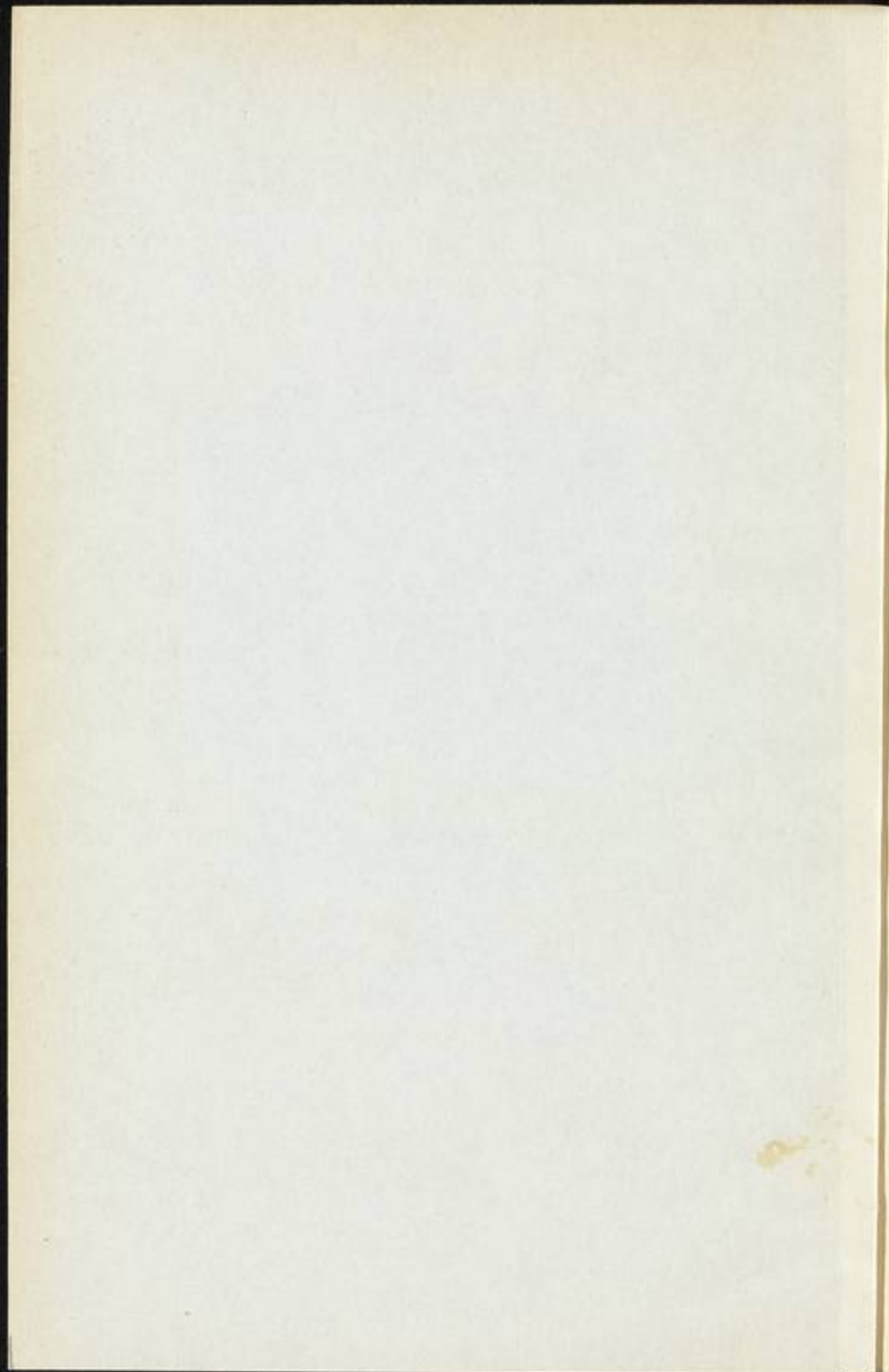
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

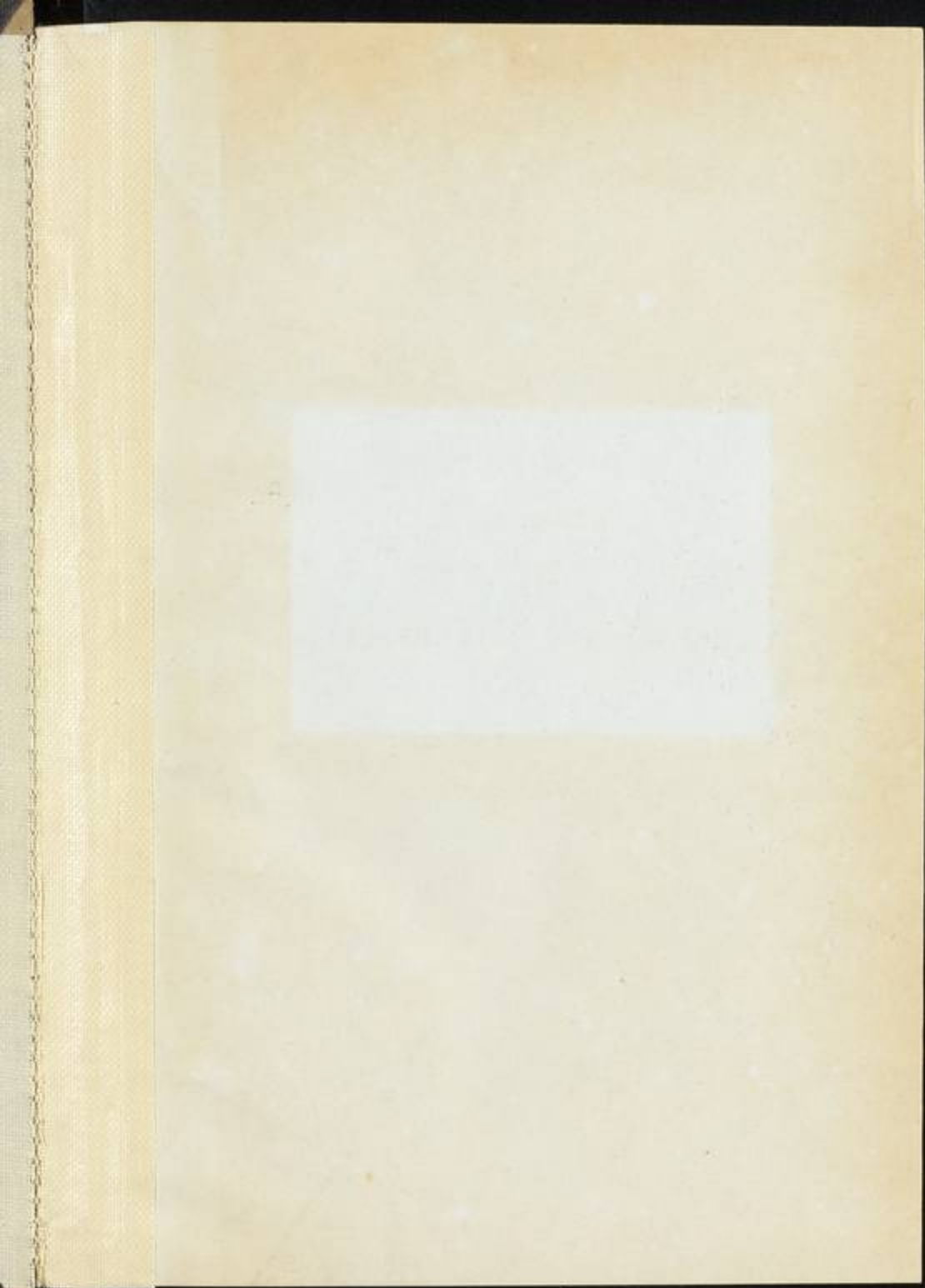
دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع

في القاهرة : مكتبة دار العروبة

في بغداد : مكتبة المنفى







LIBRARY  
OF  
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074493097

